تحت الملاحظة

عنوان الكتاب: تحت الملاحظة

تأليـــــــــف: مها صبري

نوع الكتـــــــــاب: رواية

مصمم الغـلاف:

تدقيـــــــيق:

إخراج فنـــــي: أميرة محمود

عدد الصفحات: ١٤٤

المقـــــــــاس: ١٤ × ٢١

رقم الإيـــداع: / ٢٠٢٣

الطبعة الأولى

مؤسسة هيباتيا للثقافة والفنون

01070040086

01153487403

Elsherif370@hotmail.com

I.S.B.N: 978-977-87

جمهورية مصر العربية_ القاهرة

الأمين العام الشاعر والإعلامي/

أحمد الشريف

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس، أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة كتابيه، يُعرِّض صاحبه للمسائلة القانونية.

أما الحقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

تحت الملاحظة

مها صبري

إهداء

لقد أدبتنا الحياة بقدر كاف، أدبنا الغياب وتراتيل الفرقة، وفتات الثقة المبعثرة في دروب لم تستحقها،

جاءت خطى الشتاء مكتظة بصخب الشتات، خطى محملة بروث النفوس المفسدة.

لقد أدبتنا أشياء كدنا نجهلها، أدبتنا مصافحة في أيدي غير بارة بالخير، فقط هي كمنجل حاصدة لكل هفوة تقترفها، تدور تلملم ما يسقط منك سهوًا،

أدبتنا شفاه ظمانًا لها ابتسامًا وشوقًا وخفقًا، ودأبت هي على ذم كل جميل فينا.

إلى القلوب التي آلمتها الأيام وشوهت أجمل ما فيها.

إلى البسمات والنفوس البريئة والأزمات التي جعلت مننا شيئًا هشًا،

إلى كل من وقف جوارنا ومد لنا يد العون بالتشجيع والمثابرة،

إليك عزيزي القارئ متمنية أن يكون بمثابة بوصلة للحق ونور الأمل.

الفصلُ الأولُ

الطقسُ سيءٌ كسوءِ حالِ تلكَ السيجارةِ التي تعانقُها أصابعُه وتودُّ الفرارَ، تودُّ التخلُّصَ منه، ولكن هيهاتَ بينما فرَّتْ الشمسُ هاربةً بين السحابِ وتوارتْ عن الأعينِ؛ لعلَّها تستريحُ من أعينِ البشرِ وبالأخصِ الماكرينَ منهم هكذا بعضُ النفوسِ إنْ انقطعتْ عنهم فذلك هو الأفضلُ. ارتشفَ بقايا قهوتَهُ العالقةَ في قيدِ شفتاه وأخمدَ آخرَ أنفاسِ التبغِ المشتعلِ بين رئتَيه ونظرَ إلى ساعتِه التي تُعلنُ الواحدةَ ظُهرًا نهضَ وأتمَّ هندامَه وأخذَ جميعَ أشيائه: هاتفُه الجوال، المُسجلُ، الكاميرا، ودفترُ ملاحظاتٍ، وعويناتُه الطبيةُ ثم أغلق أقباسَ الإنارةِ، وتأكَّدَ بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرامُ، وأغلقَ بابَ الشقةِ خلفَه، وتوجَّهَ إلى مقصدِه.

اقتربَ من سيارته المصطفَّةِ أسفلَ العقارِ القاطنُ به وانطلقَ بها، وبرغمِ الاختناقِ المروريّ لم يشعرْ بشيءٍ من الونسِ بل حتى صدرَهُ ضاقَ من الوحدةِ التي تعتصرُهُ والأفكارِ التي تلاحقُه بين شتاتِ أيامِه وبينَ ما انتوى فعلَه. توقَّفَ في إشارةِ ونظر إلى ساعتِه، ولكنْ فاجأهُ رنينُ جوَّالِه فكانَ رقمًا غيرَ مسجلٍ، ضغطَ على زرِ الإجابةِ ورفعَه على أذنِه، هذا الصوتُ يعرفُه، ولكنْ غابَ عن ذهنِه اسمُ صاحبِه.

على الطرفِ الآخرِ:

_"كيفَ حالُك يا دكتور عبدَ الفضيلِ، أنا دكتورُ محمدُ السلاموني أهاتفُك".

تذكَّرَ على الفورِ إنهُ الدكتورُ الذي أشرفَ على رسالةِ الماجستيرِ الخاصةِ بهِ العامَ الماضي، وبفضلِ تشجيعِه أقدمَ على دراسةِ الدكتوراه في علمِ نفسِ السَيكوباتيَّة.

_" أهلًا أهلًا يا دكتور محمد أنرتَ الهاتفَ، وهل يخفى القمرُ؟".

أجابَ بضحكةٍ عاليةٍ عبرَ الهاتفِ يُلحقُها بصوتِه وقد عاد إلى هدوئه:

_"أينَ سبيلُك يا رجلُ أفتقدُك يا صديقي".

_"العفوُ يا دكتور تحتَ النظرِ، وتحتَ أمرِك في أيِّ وقتٍ".

_"سنرى هل الكلامُ بصدقٍ أمْ مجاملةٌ، ما رأيُك في أنْ تمرَّ عليَّ في عيادتي الخاصةِ؟ وفرصةُ أدعوكَ لتناولِ فنجانًا من القهوةِ ".

_"سأمرُّ بعدَ ساعةٍ، أنا ذاهبٌ لقضاءِ مشوارٍ خاصٍ سريعًا وأعِدُك سأكونُ في أتمِّ السعادَةِ لرؤيتِكَ".

أغلقَ الهاتفَ لا يدري لماذا باغتَهُ هذا الاتصالُ؟ ولمَ تذكَّرَهُ دكتورُ السلاموني بعد مرورِ كلِّ تلكَ الشهورِ، على العلمِ أنَّهُ ربَّما انشغَلَ في

عيادتِه وربَّما رسائلُ الماجستيرِ التي يناقشُها بالكليَّة، ولكن بداخلِه هاجِسٌ أنَّ هناك أمرٌ مريبٌ يريدُ إلحاقَه به. ضغطَ بقوةٍ على دوَّاسةِ المحرّكِ وانطلقَ في طريقِه تُصارعُه الأفكارُ التي تكادُ تثرثرُ خارجَ رأسِه فينصتُ لها المارَّةُ بالطريقِ.

كانَ لدَيه عدَّةُ مشغوليَّاتٍ تُوجبُ عليه الإسراعَ في القيادةِ: منها أوراقٌ خاصةٌ لابدَّ أنْ ينتهي منها، تذكَّرَ مُهاتفةَ المحامي الخاصَ به مؤخرًا بخصوصِ إعلامِ الوراثةِ الذي عليه أن يعلنه بعد وفاةِ أبيه حتى يستثني شقيقاتَه الفتيات من أخذِ مُستحقاتِهن. الشوارعُ رغمَ اتساعِ ذراعيها لابتلاعِ العابرين والسيارات إلا أنَّه شعر بها خانقةً، وسحابةٌ ضبابيَّةٌ تعمُ الوجوهَ الماثلةَ بين كفيّ الحياةِ، شعرَ بوخزٍ في قلبِهِ وربَّما فضولٍ يستجوبُ جميعَهم فردًا فردًا ليعلمَ ما يعتلي نفوسَهم الواهنةَ، ولكنْ ما فعلَه هو أنَّهُ أحكمَ قدمَيهِ على عجلةِ الوقودِ ليَضيعَ بين ذراعي الطريقِ ويغيبَ بينَ الغائبين.

الفصلُ الثاني

أبنيةٌ عتيقةٌ توارَتْ خلفَ كثافةِ الأشجارِ لتحجبَ أسرارها المستترةَ عن الأعينِ، البنايةُ بها عدةُ طوابقَ وفي الطابقِ قبلَ النهائي وبالتحديدِ العاشرِ مثبَّتةٌ لافتةٌ خُطَّ عليها عيادةُ الدكتورِ / محمد السلاموني أخصائي الطبِ النفسي.

توقَّفَ بسيارتِه وشَخَصَ بعينيهِ نحو اللافتةِ ليتأكدَ من العنوانِ الذي منحَهُ إياهُ عبرَ الهاتفِ، ثم ترجّلَ وخَطى نحو بهوِ العمارةِ فانتبهَ البوابُ واقفًا مُحييًا بيده حين أخبرَه أنَّه صديقٌ لأحدِ القاطنين ونفحَه ورقةً فئةَ العشرين جنيهًا، فوجدَ منه الترحابَ وتقدَّمَ وسحبَ له المصعدَ التفتَ للمرآةِ المثبتةِ في المصعدِ فهندمَ ثيابَه وأعادَ ترتيبَها، توقّفَ المصعدُ في الطابقِ المنشودِ واقتربَ من بابِ العيادةِ، كانَ مفتوحًا على مصراعيه فطافَ بعينَيهِ في جنباتِ العيادةِ ولم يعترضْه أحدٌ.

كانتْ مُتَّسعَةً، جُدرانُها مكسوَّةٌ بالأبيضِ، والأرضيَّةُ من البلاطِ الأبيضِ فشعُرَ لبرهةٍ بالبرودةِ تسري في جسدِهِ أنْ يجولَ بعينَيه. وفجأةً يدٌ أمسكتهُ من كتفِهِ جعلتهُ يَنتفضُ ، التفَتَ وهو شاحبَ الوجهِ، قلبُهُ تتسارعُ ضرباتُه، وجد صديقَهُ صاحبَ الدعوةِ إلى عيادتِه يرتدي عُوبناتَهُ الطبيَّة، والبالطو الأبيضُ والابتسامةُ تبتلعُ وجهَهُ من الترحابِ

_"أهلًا أهلًا تلميذي النجيب".

ابتسما وتبادلا التحيّةَ، وربتَ على يدِه في السلامِ قائلًا:

_"أصبتَ في لفظِك تلميذي".

أشارَ له بالدخولِ إلى مكتبِهِ واصطحبَهُ إلى الداخلِ، ثم أشعلَ غليونَهُ بالتبغِ واتكأ بظهرِهِ للخلفِ في ارتياحٍ بعدَما ارتشفَ أولَ رشفةِ تبغٍ، عينُهُ لازالتْ معلّقةً بوجهِ الماثلِ أمامَهُ وكأنَّهُ يراقبُ شيئًا ما يحدثُ، شردَ عبدُ الفضيلِ بذهنِهِ، ولكنْ إلى أينَ؟ لا أحدَ يدري وإذ فجأةً قطعَ صخبَ أفكارِهِ صوتُ حشرجةٍ:

_"أعرني انتباهَك يا بُنيَّ! لقد وقعَ عليَّ الاختيار وتم ترشيحي من قِبَلِ الكليةِ في الذهابِ لبعثةٍ إلى هولندا والمفترضُ أنَّ البعثةَ الشهرُ القادمُ ولمْ يبقَ سوى أسبوعٌ لأستعدَّ ولا أدري متى تنتهي لأعودَ".

احتقنَ وجهُ الماثلِ أمامَهُ وحاولَ النطقَ أو يشيرُ إليهِ، ولكن لمْ يمهلْه الفرصةَ فقد ألجمَه واستكملَ حديثَه، ارتشفَ الأخيرُ التبغَ في شغفٍ ثُمَ سعُلَ بشدةٍ ومع كلِّ سعلةٍ منه ينتفضُ قلبُ عبدِ الفضيلِ بين أضلُعِه، فتمتمَ سرًا أنْ ينتهي هذا الحديثُ الغامضُ لاعنًا تلك المعرفةَ التي أوقعتْ به في ذلك المأزقِ.

أكملَ الحديثَ:

_"أودُّ أنْ أخبرَكَ بشيءٍ هامٍ، ولكنْ اللعنةُ نسيتُ! ".

ابتسمَ محاولًا حقنَ غيظَهُ

_"تمهَّلْ وتذكَّرْ لن يفوتَنا شيءٌ، نعم لستُ على عُجالةٍ".

تهلَّلتْ أساريرُهُ

_"تذكَّرتُ! سفري سيحدثُ خللًا لم أفكرْ فيهِ لذلك قبلتُ البعثةَ.

عيادتي ومرضايَ من يراعيهم بدلًا عني؟ أيرضيكَ أنْ تُغلَقَ؟ أم يرضيكَ أنْ يشرّدَ المرضى أو يزدادونَ تعقيدًا".

_"أرى أنَّ حضرتَك أعطيتَ الموضوعَ أكثرَ من حجمهِ كل ما في الأمرِ أنْ توكِلَ بها طبيبًا آخرًا يقودُها إلى حينِ عودتِك".

أخذَ يفكّرُ الأخيرُ سرًا (صدمتني إجابتهُ) وإذا بهِ يقهقهُ وتعلو ضحكاتُه أظنُ أنَّهُ قد جُنَّ هذا الرجلُ ورُبَّما اللومُ على هذا التبغِ الذي يرتشفُه ربَّما يكونُ ممزوجًا ببعضِ المخدِّرِ، ولكنَّهُ لوَّحَ لي بيدِهِ نافيًا وكأنَّ انكشفَ أمامَهُ بواطنُ أفكاري اللعينةِ

_"لا تندهشْ يا عبدَ الفضيلِ أنا على علمٍ بما يدورُ في رأسكَ. نعم أنا لا أمزحُ أنا أعددتُ لك ملفاتِ المرضى جميعًا وهذه نسخةٌ من مفتاحِ العيادةِ وعبدُ العالِ الممرضُ سوفَ يكونُ معكَ وقتَما تحبُ، وأتمنَّى أنْ تدرسَ هذه الملفاتِ في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ".

لمْ أُجِبْ فأنا الفترةُ القادمةُ سوفَ أكونُ منشغلًا من أَخامِصِ أصابعي وحتى شعرِ رأسي فهناكَ ميراثي وإعلانُ الإرثِ، والمحامي، والدكتوراه

ويعاودُ حديثَهُ فيقطعُ استرسالي فيما أنا غارقٌ لأجدُ نفسي دون إرادتي أومئ له بالموافقةِ فانتفضَ وتركَ هذا الغليونَ من يدِه يتجهُ نحوي محييًا إيايَ ومحتضنًا لي ومربتًا على كتفي بحسمٍ قائلًا:

_"أنا أثقُ بكَ. وأتمنى ألّا تخذلَني مع مرضايَ".

ابتسمتُ:

_"يا دكتور أنا ...".

_"لا لن أقبلَ اعتذارًا أنتَ أكفأ تلميذٍ لديَّ وصدقني ستنجحُ، وستقفزُ قفزةً كبيرةً في عالمِ الطبِ".

_"لن أرفضَ لك طلبًا ولن أخذلَك، ولكنّي مشغولٌ الفترةُ القادمةُ، لتوّي قد أنهيت رسالةَ الماجستيرِ أعني أنَّ خبرتي لازالتْ محدودةٌ".

_"عبدُ الفضيلِ المرضى أمانةٌ في يدَيك".

ودسَّ بين يدَيَّ الملفَ دونَ أنْ ينتظرَ مني ردًا ومعهم مفتاحُ العيادةِ. حييتُهُ ودعا لي بالتوفيقِ، ثم غادرتُ العيادةَ وانطلقتُ بسيارتي شاردَ الذهنِ لا أدري ما هذا الثِقَلُ الذي أُلقيَ به للتو على عاتقي ونظرتُ

نحو السماءِ وقلبي يشقُّ السحابَ بزفيرِهِ المحترقُ يودُّ لفظَ اللعناتِ وتمنيتُ فقط أنْ ينتهي اليومُ على هذا النحوِ.

الفصلُ الثالثُ

وكأنني خُطفتُ في عالمٍ أخرٍ، عالمٌ مغايرٌ لا أعلمُ عنه سوى أوراقًا تتناثرُ على رأسي من السماءِ، أوراقٌ كلما حاولت التملُّصَ منها فاضتْ وزادتْ، بحارٌ من الورقِ، أوراقٌ كادتْ تبتلعَني إنها كاللعنةِ لا أرى أصابعي، أوراقٌ كلما حاولت ألفظُ منها أحاطتني بيُمناها كأذرعِ أخطبوطٍ تحسَّستُ الأرضَ بقدمي هناك شيءٌ لزجٌ، ملمسٌ مقزِّزٌ، أشعرُ أنَّني سقطتُ في بئرٍ من التيهِ، إنَّها الهاويةُ، وإذا بيدٍ تمتدُ لا أرى صاحبَها، يدٌ خشنةٌ تحسَّستُها وصرختُ بأعلى صوتي رجَوتُها ألا تفعلَ بي، ولكنَّ اليدَ قذفتني إلى أسفلٍ، ظلامٌ لعينٌ وهناكَ صراخاتٌ لا تهدأ تُصمُ الآذانَ، أيادٍ لا أرى أصحابَها تجذبُني من معصمي تكادُ تفتكَهُ. شهقتُ شهقةً جعلتْ جسدي ينتقضُ ورنينٌ يزلزلُ كياني فتحتُ عينيَّ لأجدَ نفسي فوقَ فراشي ممددًا وأوراقُ الملفاتِ التي منحني إيّاها صديقي السلاموني بجواري ابتلعتُ ريقي ونطقتُ الشهادةَ أخذتُ أتلفّتُ حولي محاولًا التأكُّدَ أنَّني بخيرٍ، تنفستُ الصعداءَ ومددتُ يدي جاذبًا هاتفي المحمولَ فقد كانَ الرنينُ يستغيثُ ضغطتُ رد:

_"نعم! بالتأكيدِ لا تقلقْ سوف أحاولُ تجهيزَ كلِّ ما تمَّ الاتفاقُ عليه فيما بيننا".

على الطرفِ الآخرِ:

_"لم نعدْ نملكُ أيَّ حُجةٍ للتأجيلِ يا دكتور، أرجو أنْ تنظرَ للأمورِ بعينِ الاعتبارِ أكثرَ من ذلك".

_"بالتأكيدِ حضرةَ المحامي، يومانِ أو ثلاثةٌ بالأكثرِ وسوف أُعدُّ لك كلَّ ما هو مطلوبٌ".

_" لديَّ خبرٌ سيءٌ لا أريدُ إزعاجَك به صباحًا، ولكني سوف أتشجعُ وأخبرُك ما هو".

فركتُ عينيَّ محاولًا استجماعَ تركيزي بعدَ رؤيتي لكمِّ الكوابيسِ السابقةِ لأستيقظَ على صوتِ هذا اللعينِ بأخبارِه".

_"ماذا عندَك من أخبارٍ سيئةٍ لعلهُ خيرًا؟ أمات أبي مرةً أخرى؟".

أجابني بضحكاتِه الصاخبةِ في حينَ أنَّني لم أمزحْ، بل هذا نتاجُ سخريتي من إطالتِه وإلحاحِه الدائمِ

_"أظنُ أنَّ الخبرَ لن ينالَ اعجابَك بالمرةِ".

_"أعطني الصبرَ يا الله. أتمنى أنْ نُنجزَ وتلقي عليَّ ما تريدُ فقد نفدَ صبري".

_"الحقيقةُ أنَّ الأستاذَ رشوانَ زوجُ شقيقةِ سيادتِك قد قامَ بتقديمِ بلاغٍ يتهمُك فيه بالتدليسِ وأنَّك قد زوّرتَ توقيعَ فضالي بيه والد حضرتَك قبل وفاتِه وقمتَ ببيعِ نصفَ ثروتِه إلى نفسك".

انتفضتُ واقفًا من موقعي وكأنما أصابتني قشعريرةٌ كهربائيةٌ، واشتعل رأسي، وشعرت برمادِها يصلُ إلى أنفي:

_"ماذا تقولُ؟ رشوان مَن؟! زوجُ شقيقَتي أنا يتهمُني بالسرقةِ والتزويرِ غيرُ معقولٍ. هل أنتَ متأكدٌ مما تقوله؟".

أعاد على مسامعي كلَّ ما أخبرني به منذ دقيقةٍ كلمةً كلمةً وحرفًا حرفًا فنزلتْ دمعاتي وكأنَّ والدي لم يمتْ منذُ ثلاثةِ أشهرٍ بل للتوِ واللحظةِ، أغلقتُ الهاتفَ وأنا كشاةٍ تم اصطحابُها للذبحِ ولم يرأفْ بحالِها الجزارُ في ليلةِ عيدٍ، ذهبتُ إلى المرحاضِ واطلقتُ الدوش فوقَ رأسي ليزيلَ عني كلَّ ما علقَ في رأسي وصدري من ألمٍ، صخبُ الماءِ المنسابِ يرتفعُ، وترتفعُ معه ضوضاءُ الأفكارِ؛ وسؤالٌ يحاوطُني كذئبٍ ينهشُ رأسي ما العملُ؟

أنهيتُ استحمامي وخرجتُ وارتديتُ كاملَ سِترتي، ونثرتُ عطري الرجوليَّ المفضلَ لديَّ، ثم انطلقتُ بسيارتي أنفثُ سيجارةً فكان عبقُ التبغِ أنيسي الأوحدَ في خلوتي بنفسي لأرتّبَ أفكاري، قصدتُ وجهتي بيتَ شقيقتي الأكبرِ إيناس ووقفتُ بسيارتي أمامَ المنزل، ثم ترجَّلتُ منها وأخذتُ نفسًا عميقًا بعدما تأكدتُ أنَّ زوجَها ليس

بالمنزِلِ؛ إذ أنني لم أجدْ سيارتَه متواجدةً فارتاح قلبي قليلًا، صعدتُ الدرجَ ووقفتُ أمامَ شقتِها ورننتُ الجرسَ فأنفتحَ البابُ لأجدَ إيناس في استقبالي بابتسامةٍ ولكن باهتةٌ فانقبضَ قلبي وقتَئذٍ وشعرتُ أنَّها على علمٍ بما حدثَ وكأنَّها توقعت مجيئي فرحَّبتْ بي واصطحبتني إلى الداخلِ فبادلتُها الردَ بابتسامةٍ فاترةٍ:

_"اجلسي يا إيناسُ لا تفعلي شيئًا لم آتي للضيافةِ".

_"لا تحرجني على الأقلِ نشربُ شايًا سويًا".

_"إيناس أنتِ".

نظرتْ لي بعينٍ مرتابةٍ تنتظرُ استكمالَ كلامي ، ولكن فجأةً لاحقتني باختلاقِ مواضيعٍ ليس وقتها مثلَ أنَّها تخافُ عليَّ من وحدتي، وأنني لابدَّ أن أجدَ لي عروسةً وأسرعُ في الزواجِ، فقطعتُ عليها طُرقَها الملتويةَ:

_" إيناس أنتِ تعلمين بما فعله رشوان؟".

_" أنا والله تحدثتُ كثيرًا في ذلك الموضوعِ وهو قالِ لي إنَّه يحاولُ المحافظةَ على حقي".

_"وهل ذلك بأن يطعنَ في شرفي؟! بأنَّه يتهمُني أنَّني زورتُ؟ بأنَّه يطعنُ في عقلِ والدِنا رحمه الله!".

لم تُجبْ فقط اختبأت بوجهها في الرمالِ كنعامةٍ هاربةٍ لا تقوى على الحربِ خذلني صمتُها أشدّ خذلانٍ ربما أشدُ من وقوفِها في صفِ زوجِها ضدي، علمتُ كيف يتغيرُ الأشقاءُ وتتغيرُ القلوبُ حينَ يرحلُ الآباءُ؛ كيف تسقطُ الفروعُ وتتوارى الأغصانُ حينَ تنقطعُ الجذورُ من الأعماقِ. اليومَ علمتُ أنَّني يتيمُ الأهلِ واليُتمُ لا بموتِ الأهل بل اليُتمُ من تخلي ما يسمون بأشقاءِ عنّا وهم على قيدِ الحياةِ. توجهتُ إلى البابِ حتى أغادرَ، سمعتُها تناديني لأنتظرَ، ولكنّي تركتُها دون أنْ ألتفتَ دون أن أعاتبَ ودون ذكرياتي أنّني شقيقُها الوحيدُ والصغيرُ؛ تركتُ قلبي ومشاعري اليومَ ونحّيتّها جانبًا وقررتُ قرارًا مصيريًا أنْ أعملَ قُصارى جهدي لأشقَّ طريقي وأصلَ لثمارِ مستقبلي.

الفصلُ الرابعُ

تمرُ الأوقاتُ العصيبةُ كبطء سلحفاةٍ أنهكَها السيرُ قبلَ أنْ تبدأ والأوقاتُ الرائعةُ كذلك تمرُ، ولكن كالبرقِ تظهرُ في سمائنا وسريعًا ما تضمحلُّ. مُنكبٌ على أوراقِ الملفاتِ وبدأتُ بقراءةِ بعضِها وتدوينِ بعضِ الملاحظاتِ الهامشيّةِ جانبًا، لا أدري كم مرَّ عليَّ منذُ زيارتي لإيناس يومَئذٍ عدتُ وأنا كالمخمورِ بخمرِ الألمِ، أترنَّحُ لا أدري سبيلي، ولكن حينَ أفقتُ أغلقتُ هاتفي ومكثتُ عدةَ أيامٍ دون أنْ أرى عتمةَ الليل ولا وضحَ النهارِ خارجَ صَومعتي الخاصّةَ في منزلي. أنهيتّ ملفان كاملان من تلك الخاصّة بالمرضى ونحّيتّهم جانبًا وعدتُ إلى كتبي ومَراجعِي حتى أبدأ في رسالتي الخاصَة بالدكتوراه شعرتُ أنّني كالخزانةِ المكدَّسةِ بالثيابِ حين تقتربُ لتفتحَها ربما انفجرتْ في وجهك في شلالاتُ غضبٍ وربما فيضٌ من الوجعِ. لا أنكرُ أنْ ما قرأتُه بين سطورِ الملفين أصابني بالدهشةِ والحيرةِ والخوفِ أيضًا، نعم حكاياتٌ من الحقيقةِ، ولكنها أغربُ من الخيالِ. الملفُ الأول لصاحبهِ "معاذُ" حاليًا هو طالبٌ ملحقٌ بالفِرقِ التمثيليّةِ حكايتُه كما هو مُدونٌ وتبعًا للشرائطِ التسجيليّةِ يرويها بنفسهِ قائلًا:

_"تبدأُ حكايتي وأنا في الصفِ الثالثِ الابتدائي طفلًا صغيرًا لا يدري من حُطامِ الدنيا إلا اللهوَ مع رفقائه الصغارِ. أبي وأمي يعاملاني برفقٍ أشعرُ بالأمانِ في كنفِ أمي إلى أنْ جاءَ يومٌ كنتُ أجلسُ بين

اصطاف زملائي بالفصلِ الدراسي ووقفتْ هي في مقابلِنا معلمةُ الرياضياتِ "مس ثناء" شابةٌ في الثلاثين تقريبًا حادةُ الطباعِ، تطيحُ في الجميعِ بطشًا، وكنتُ أنا تلميذًا هادئًا يتجنبُ الشغبَ طلبتْ مني كراستي ولأنّني تغيبتُ بالأمسِ فلم أقمْ بحلِّ الواجبَ الملقى عليهم فدعتني للمثولِ أمامَ السبورةِ وضربتني ضربًا شديدًا بالعصا على كفي وأرجلي وطلبتْ مني أن أرفع يدي فوق رأسي؛ بكيتُ في حزنٍ شديدٍ وأحاولُ أنْ أخبرَها أنني تغيبتُ لمرضِ أمي، ولكن لم تمهلني فرصةً لتصغِ أنتفضُ وترتعدُ كفاي من شدةِ الألمُ وفي الخلفِ زملائي يضحكونَ ويتنمرونَ عليَّ وخفقُ قلبي يتعالى مصاحبًا لصوتِهم ورنَ جرسُ الفسحةِ جميعُ زملائي انطلقوا فرحينَ غيرَ مبالينَ بما أعانيهِ من ألمٍ، خلا الفصلُ من الجميعُ وخلتْ المقاعدُ إلا من بؤسي كنتُ منكبًا على مكتبي الخشبي أسكبُ وجعي وأناتي وإذا بكعبٍ يطرقُ على الأرضِ انتفضَ قلبي وانكمشتُ في مقعدي لأجدَ يدًا تسللتْ إليّ كانتْ هي نعم. رفعتُ وجهي أحدّقُها فاقتربتْ مني أناملُها تزحفُ على وجهي وشفتايَ، تسللَ الخوفُ إلى قلبي ودقَّت طبولُه، زادتْ أناملُها في الزحفِ على جسدي، لامستْ رجولتي التي لم تكتملْ، بعدَ تحسُّسِها ارتعدتُ ونزعتُ يدَها وابتعدتُ، اقتربتْ مني وهي تحذّرني رافعةً حاجبها الأيسرَ لو أخبرتَ أحدًا بالمنزلِ أو علمَ أيُّ أحدٍ سوف تقتلني أومأتُ لها بالموافقةِ وحلّقتُ بقدميَّ في الهواءِ لأنطلقَ مغادرًا عدتُ إلى منزلي وانزويتُ وحدي لم أستطعْ أن أخبرَ أمي بما حدث تخوّفًا من إنذارِها لي وعكفتُ عن الذهابِ إلى المدرسةِ يومين ولكن أمي

أصرَّت ، وذهبتُ وأنا مرغمٌ أتقدمُ بخطوةٍ وأتقهقرُ بألفٍ لم تعتقني مس ثناء لوجه الله، ولكن ما حدثَ فيما بعدُ ما كان إلا وابلًا من اللعناتِ. مرَّ الفصلُ الدراسيُّ الأولُ وكانت درجاتي في مادةِ الحسابِ ضعيفةً مما جعل أمي تلومني وتدفعني لأخذِ درسٍ خصوصيّ كأقراني اللذين في سني ومع بدايةِ الفصلِ الدراسيّ الثاني توجَّهتْ أمي إلى مدرستي وبعد سؤالِها عن المسؤولِ الجديدِ عن مادةِ الحسابِ الخاصِ بفصلي طلبتْ من المعلمةِ أنْ تدعَمَني بدرسٍ خاصٍ واستسلمتُ أنا كقطعةِ عجينةٍ يقذفُها أحدهم ليتلقفَها الأخرُ يضعُها أينما يشاءُ إلى أنْ استقرَ بي الحالُ أن آخذَ درسًا في بيت الميس الجديدة "سعادُ" وهي في نفسِ سن الميس ثناء اقتربت مني لتلقي على مسامعي الدرسَ، ولكني انكمشتُ في نفسي بخوفٍ مما دعاها إلى الريبةِ في أمري، فبدأتْ في استجوابي بحيلةٍ ما وما كان مني إلا أنني قصصتُ عليها ببراءةٍ أو ببلاهةٍ ما جنيتُه من أفعالِ ميس "ثناء " شاكيًا منها وباكيًا ليكونَ ردَ فعلها أنها تحرشت بي في أجزاءِ جسدي تطوف بيدها؛ ثم تقترب ترغمني على تقبيلي؛ ثم تقوم بضربي وتوثق يداي خلف ظهري وتلقي بي أسفل قدميها ، وتضغطُ بقدمها على وجهي، توبخُني وتلعنُني وتطلبُ مني مطالبًا لم أكن أدركُها كنت أرتجُّ خوفًا أرتعدُ أفعلُ أيَّ شيءٍ تطلبه تخوفًا فقط راجيًا ألا تأذيني فصلًا دراسيًا كاملًا من المعاناةِ وأعودُ إلى غرفتي

كعودةِ فأرٍ إلى جحرهِ بعدَ عنائه في وحلِ المطرِ، يرتعدُ مبللًا بخيبةِ الأملِ والخوفُ يلافحُه".

نفثتُ سيجارتي لتخرجَ من صدري اللعناتُ تتلوي كراقصاتٍ من الرمادِ بعدما استمعتُ للمسجلِ وقرأتُ في ملفِ هذا المذكورِ شعرتُ بالصداعِ، والوخزِ في أمعائي كان يدعوني للقيئ؛ فأغلقتُ المسجلَ وطويتُ الملفَ لأخذِ قسطٍ من الراحةِ وهممتُ لأبدلَ ثيابي أملًا في الخروجِ بعدَ كلّ هذه العزلةِ التي أحكمتُها على نفسي مددتُ يدي للهاتفِ وفتحتُ زرَ التشغيلِ ليعودَ له متنفسهُ لأجدَ وابلًا من الرسائلِ بين فيس بوك، وواتس آب، ومكالماتٍ ألقيتُ نظرةً عابرةً ووضعتُه على تابلوه السيارةِ وشغّلتُ الكاستَ لأستمعَ "وغدًا ألقاكَ" انطلقتُ اتنفسُ الحريةَ المطلقةَ الخاليةَ من عوادمِ الحياةِ ومنغّصاتِها.

الفصلُ الخامسُ

تسارعتْ الأمطارُ في الهطولِ تلاحقُ بعضَها البعضُ، زخاتٌ تدفقت فوق سقفِ سيارتي تخلطُ الماضي بالحاضر و أذابني رذاذها. ضغطتُ بكل قوتي على المحركِ لأنطلقَ أطوفُ بين الطرقاتِ هاربًا من كل شيءٍ وبالأخصِ من نفسي التي كلما خليتُ بمفردي واجهتُها واستحالَ بيننا الفرارُ، كان الطريقُ خاويًا إلا من آثارِ الشتاءِ القابعة فوق ملامحي ونبضاتي المتواليةِ كتلك الزخاتِ، طُفتُ بعيني وأخرجتُ رأسي من نافذةِ السيارةِ لأتلقفَ المطرَ ربما أفاقني من كبواتِ أفكاري تلفتتُ لأرى هناك خيالًا متكئًا بجزعهِ على أحدِ الأشجار، تمهلتُ في السيرِ لأرى من هذا الذي تلفَّحَ بالليلِ واندسَّ بينه كهاربٍ من مثلي يتسكعُ بين الأزُقةِ وأحضانِ الشوارعِ. اقتربت قليلًا بالسيارة فانعكسَ ضوءُ القمرِ على وجهِها! فتاة في مقتبل الأربعين تقريبًا تتوشحُ بشالٍ وفستانٍ يكادُ يتمزقُ من أنوثتِها طرقتْ بنعل حذائها الرنانُ فأوقفتُ السيارةَ وأشرتُ لها بأصبعي فهمَّتْ مسرعةً لأجدَها تشاركُني مقعدي، عطرُها نفاذٌ غيرُ محببٌ، ولكن حاولت إقناعَ أنفي به، ابتسامتُها تكسو وجهها المنغمسُ في المكياجِ كان ثابتًا رغمَ بللِ ثيابِها، حدّقتُها بنظرةٍ واحدةٍ واشحتُ بوجهي لأنطلقَ بالسيارةِ وفي حينِ سيري لم ألتفتْ إليها، كانت ترتعدُ من البردِ فتوقفتُ بالسيارةِ أمامَ محل بقالة وملتُ برأسي نحوها:

_"لحظاتٌ سأشتري بعضَ الاحتياجاتِ".

أومأتْ لي برأسها موافقةً فدخلتُ إلى المحل وابتعت بعضَ الجبنِ والمأكولاتِ، والشكولاتة، والقهوة، وبعضَ الفاكهةِ. أنهيتُ الشراءَ وتوجهتُ بالأشياءِ نحو السيارةِ فسارعت هي بفتحِ البابِ لي واستقبالي لم تنطق ببنتِ شفةٍ فقط ابتسمتْ أخذتْ في تأليفِ العديدِ من السيناريوهات التي ألقت بها بين براثنِ الخطيةِ، وارتكابها تلك الفحشاء قد يكون أمرٌ أكثر سوءًا لم تخلُ رأسي من الأفكارِ، وبعد قليلٍ وصلنا فترجّلَ كلانا وصعدنا الدرجَ في هدوءٍ خشيةَ أن يلحظَ أحدُ الجيران، ولكني لا أظنُ أنّ هناك أحدٌ مستيقظٌ في تلك الساعةِ المتأخرةِ إنَّها الثالثةُ صباحًا. دخلنا إلى المنزلِ وخلعتُ أنا معطفي وكوفيتي الملتحفُ بها وخلعتْ هي نعليها والشالَ المبللَ، ولكن ما فعلَتْه أثار في نفسي تساؤلاتٍ عدةٍ همّتْ تحت قدمي تخلعُ عني حذائي وجاءت بطبقٍ به ماءٌ ساخنٌ تغسلُ قدميَّ فبلعتُ ريقي في اندهاشٍ، ثم ازحتُ ما تفعله وأمسكتُ بيدها ولم أنطق معها كلمةً واحدةً، ولكن أشرتُ لها في إتجاه المرحاضِ ودعوتُها للاستحمامِ واغتسلنا، كنت فقط اتأملُها تحت الماء المنسابِ اتفرسُ إليها فقط ولم أقتربْ منها ربما تخوفًا لأنها المرةُ الأولى لي؟ وربما لشعورٍ داخليّ بالبغض أنها مجردُ عاهرةٍ، انتهينا سريعًا وارتديتُ ثيابي وانتظرتُها بالفراش. كنت في جوعٍ شديدٍ لموتٍ مؤقتٍ لألامي، قبرٌ يبتلعني ويبتلعُ كل ما بي من همومٍ وكل ما بي من فيضٍ انغمستُ بين أحضانها

كالمغيَّبِ، كالمخمورِ بين فرقة الحياةِ وسكرةِ الموتِ كنت في حاجةٍ لمن أبثُ له شقائي فوجدتني أنهمُ منها بشغفٍ كرجلٍ شبقٍ. ارتميتُ بين نهديها أبكي، ولكني لم أستطعْ أن أصمد أمامَ فتنةِ جسدها النافرِ، لم تسألني من أنا ولا طلبت مني نقودًا كما يفعل مثيلاتها على حد سمعي، كانت خادمةً مطيعةً فقط، رُحتُ أنهلُ منها حتى أرتوى ظمأي وبعدما انتهينا ارتميتُ أنا في غفلة لم أشعرْ بجسدي المنهكِ ومضت ساعاتُ النهارِ وأفقتُ وأنا لا أدري هل ما حدثَ بيننا بالأمسِ حقيقةٌ وواقعٌ؟! أم هو خيالٌ لم يتعدَّ الحلمَ؟ بحثتُ عنها جواري فلم أجدْها وفجأةً وجدتُ مُن قطعَ عليَّ أفكاري؛ ارتدت ثيابها متشحةً بنفسٍ الشالِ ووجدتُ الشقةَ في حالة زاهيةٍ من النظافة فنهضتُ من موضعي:

_"إلى أين أنتِ ذاهبةٌ؟".

_"يجبُ علي أن أذهبَ الأن يا سيدي، هل تأمرني بأي شيءٍ؟".

عقدتُ حاجباي في دهشةٍ:

_"سيدك!؟ ما اسمكِ؟".

لم تجبني وابتسمت:

_"نعم سيدي وأنا خادمتُك زينة".

_"لا تقولي كلمةَ سيدي وخادمتك تلك فأنا لا أحبذها، انتظري إلى أين أنتِ ذاهبةٌ؟".

_"لقد تأخرتُ ياسيدي ولابدَّ أن أغادرَ، أحضرتُ لك الفطورَ بالخارجِ على سفرةِ الطعام و...".

قاطعتُها:

_"وإذا وددتُ رؤياكِ؟".

_"ستجمعُنا الليالِ ياسيدي، الليالي دائمًا تجمعُ البائسين".

كلماتُها كانت تحملُ قدرًا خفيًّا من الحزنِ لامس أوتارَ قلبي، ولكن سريعًا ما اختفت من أمامي كبخارِ ليلٍ جاءت شمسُ الصبحِ فبددتْه لا أدري لماذا فعلتُ هكذا بنفسي؟! لأرتمي في أحضانِ غانيةِ بدون سابقِ معرفةٍ... غانيةٌ لها العجبُ لم تطلبْ نقودًا! لم تفتشْ في حاجياتي، لم تتمردْ، وغُسلها لقدميَّ، كانت الأسئلةُ تفتكُ بي لا أجدُ إجابةً واحدةً، ولكن اختفتْ الاسئلةُ من ذهني مع رنينِ الهاتفِ حدّقتُ به لأرى اسم المتصلِ كان أستاذي السلاموني يتصدرُ الشاشةَ فضغطتُ رد وأنا على مضضٍ:

_"مرحبًا يا دكتور، كيف حالُك؟".

_" أهلًا أهلًا يا عبدو ما أخبارُ الملفاتِ؟ ومتي ستذهبَ إلى العيادةِ؟ فأنتَ مختفٍ منذُ عدةِ أيامٍ، وأنا على وشكِ السفرِ يا بطلُ، طائرتي

بعدَ غدٍ ولن أتمكنَ من التواصلِ معك؛ ولِحظِّك السيءِ في المؤتمرات ممنوعٌ استخدامُ الهواتفِ".

_"والله يا دكتور محمد فأنا في حالة نفسيةٍ سيئةٍ".

جاءني صوتُه بضحكاتٍ صاخبةٍ للأذن:

_"يبدوا أن بابَ النجارِ مخلّع كما يُقال وأخشى أن أكونَ قد راهنتُ على الفرسِ الخاسرِ".

أفحمني حديثُه رغم أنني أعلم أنه يمزحُ، ولكن شعرتُ بالضيقِ فلم أجبْ إلى أن انتهى فأجبت بكلمة واحدة:

_"أن شاء اللهُ خيرًا".

_"غدًا صباحًا تستطيعُ أن تستلمَ العيادةَ، وإذا كنتَ في حاجة إلى أيّ شيءٍ تستطيعُ مراسلتي على بريدي الإلكتروني الخاص، ولكن انتبه ذلك فقط في حالة الضرورة القصوى، وأيضًا هناك مفاجأة لأجلك لو...".

_"لو ماذا يا دكتور؟ مفاجأة؟! أنا سأفعلُ هذا خدمةً مني لسيادتك ويكفي وقوفك بجانبي في رسالة الماجستير".

_"لا تقول هذا الكلامَ، لو لم أعرف أنك طموحٌ ونابغةٌ لم أكن لأسندَ لك الأمر، ولكن إذا فشلتَ ستُضيعَ نفسك وتخاطرَ بسمعتي أنا أيضًا، مع السلامةِ وأتمنى أن اسمع عنك كل خيرٍ".

أنهيتُ المكالمةَ وأنا يتملّكني الغيظ من أين هبط عليَّ هذا الكابوس دفعةً واحدةً؟ ولكني بعد برهةِ تفكيرٍ تنفستُ الصعداءَ شاخصًا نحو السماءِ مرددًا في صدري:

_"لعلها إرادةُ اللهِ حتى أنسى ما طعنتني به إيناس".

ولا أدري ما هو قادم هل خيرٌ أم سيزيدني بؤسًا؟

الفصلُ السادسُ

الشمسُ مُختبئةٌ كطفلٍ لا يودُّ أن يَطأ بقدميهِ مغامرةً جديدةً مع ذويهِ، لازالتْ السحبُ تتصارعُ لتحجبَ دفئها، توارت واضمحلّتْ مَثلُها كمَثلِ الفرحِ في عمري مجردُ ومضاتٍ سريعةٍ وينطفئُ. رنينُ المنبهِ أيقظني رَغمًا عني لم أنعمْ بكفايتي من النومِ منذُ فترةٍ، ولكن لا أدري ربما اليومَ أفقتُ وأنا حائزٌ ببعضِ السريريةِ، أوقفتُه ثم عاودَ الرنينَ فأطحتُ به وتحسَّستُ عُلبةَ سجائري على الكومودينو وتلَهَّفتُش إلى اشعالِ إحداها لتساعدَني على اليقظةِ ونهضتُ من موضعي وتوجهتُ إلى الموقدِ وأعددتُ فنجانَ قهوتي وإذا برنينِ هاتفي، كنتُ أودُّ ألَّا أُجيبَ دونَ النظرِ للشاشةِ فلم يعدْ لديَّ رغبةٌ أنْ أزحمَ رأسي بمن حولي. للحظةٍ شردتْ عيني والسيجارةُ تلتهمُها شفتاي كادتْ تحترقُ بها إلى أنْ انتبهتُ على صوتِ فورانِ القهوةِ و يا للأسفِ فقد انسكب وجهُها، فالقهوةُ رفيقٌ لابدَّ أن تنتبهَ لهُ، تحتسيه في تُؤَدَةٍ ليمنحَك الثقةَ التي ربما لا يعطيكَ إيّاها الأخرون. صببتُ فنجاني وتوجهتُ إلى الهاتفِ وإذ به يعاودُ الرنينَ كان رقمٌ غيرُ مسجلٍ فضغطتُ على الردِ ليأتيني صوتٌ لا أعرفُه يتحدثُ بعفويةٍ:

_"نهارُك سعيدٌ يادكتور أنا عبدُ العالِ مساعدُ الدكتور السلاموني وهو من أعطاني رقمَ حضرتِك وقالَ لي أنْ أقومَ بالاتصالِ بك والتواصلِ معك من أجلِ...".

قطعتُ حديثَه متأففًا:

_"حسنًا حسنًا صباحُ الخيرِ يا...؟".

_"عبدُ العالِ يا دكتور، هل ستأتي حضرتُك اليومَ إلى العيادةِ حتى نقومَ بفتحِها؟ المرضى يتصلون بنا يوميًا وأنا أُؤَجِّلُ و...".

سارعتُ في المَجيبِ لأُخرسَه، إنَّ ثرثرتَه كادت تفتكُ برأسي وتزحمُها بالأكثرِ دونَ فائدةٍ:

_"اذهبْ أنت أولًا يا عم عبده وأنا سوف أذهبُ بعدَك في غضونِ ساعةِ زمنٍ".

أنهيتُ الحديثَ معه وللأسفِ كانت قهوتي فترتْ مثل أوقاتي العابرةِ وشغفي، هناك أوقاتٌ تمرُ بالإنسانِ تكادُ تقصفُ سنواتِ عمرهِ وشبابِه وهي: ركودُ الروحِ وما بها من شغفٍ ونبضٍ ساكنٍ. احتسيتُ قهوتي رغمَ مذاقِها غيرُ المُرضي وارتديتُ ملابسي وأخذتُ معي الملفاتِ التي كان قد تركَها لي رغمَ أني لم أنتهِ منها بعدُ، وأغلقتُ كلَّ شيءٍ خلفي كما أغلقتُ الماضي وما خَلَّفهُ لي برمَّتهِ. ركبتُ سيارتي وانطلقتُ وبعدَ دقائقَ كنتُ قد وصلتُ إلى العيادةِ دخلتُ، هناك كلُّ شيءٍ أبيضٌ وكأنَّ الجدرانَ قد مُسحت من ذاكرتها، استقبلني رجلٌ بثوبِه الأبيضِ في سنِ الستينَ بلحيةٍ طفيفةٍ بيضاءَ، وابتسامةٍ تتصدرُ وجهَه ألقيتُ عليه السلامَ ودخلتُ إلى مكتبي أو بمعنى أدقّ

مكتبِ الدكتورِ السلاموني لم يكن هناك ما يلفتُ انتباهي سوى كرةٌ من الزجاجِ في حجمِ كفِ اليد يتخللها عروسان وعند لمسِها تصدرُ موسيقي تانجو رائعةً. ظللتُ أديرُها وأنصتُ ثم ألتفتُّ إلى طرقِ البابِ ما كان إلا عبده المساعدُ يسألُني إنْ كنتُ أريدُ احتساءَ مشروبٍ وبالطبعِ طلبتُ قهوةً. ذهب عبده لإحضارِ القهوةِ وكنتُ أنا اتفحصُ الملفاتِ إلى أنْ رنَّ هاتفُ المكتبِ:

_"ألو، نعم أنا الدكتور، لا دكتور السلاموني خارجُ البلادِ".

كانَ صوتُ شابٍ تتخللهُ رعشةٌ وبعضُ التردِدِ يسألني متى بإمكانِه الحضورُ؟ فأجبتُه أن يتفضلَ اليوم.

_"تستطيعُ الحضورَ الأنَ إذا أحببتَ. هل لديك ملفٌ خاصٌ بك هنا؟".

على الطرفِ الآخرِ:

_"لا ليسَ لديَّ لقد بحثتُ عن طبيبٍ نفسيٍ وتم وصفُ عيادةً دكتور السلاموني لي".

_"لا بأسَ تستطيعُ أن تشرفني الأن، أنا دكتور زميلٌ للدكتورِ السلاموني وأحلُ محلَه حتى موعدِ عودتِه".

أنهى المكالمةَ على أتفاقٍ بحضورهِ الأن في الطريقِ إلى العيادةِ، كان هناك بعضُ الكتبِ المتراصَّة فسحبتُ أحدَها وتسللتُ بين سطورِه لقطعِ هذا الملَلَ حتى حينِ وصولِ المريضِ وكان الكتابُ عنوانَه (الشخصيةُ وكيف تطلقُ قواك الخفيَّةَ)، وكان الكتابُ يتحدثُ فيه الكاتبُ" روب يونج" عن القوةِ الداخليةِ لكلِّ شخصٍ منا ويبدأُ معك من شخصيتِك أولًا فهي كنزٌ دفينٌ فلكلٍّ منا قوة. إذا حالفَك الحظ ووجدتَها فقد تمكنتَ من حلِ معضلةِ الحياةِ الصعبةِ؛ حيث يتكلمُ عن أبعادِ الشخصيةِ السبعةِ، ويقدمُ مجموعةً من الاختبارات. شردتُ بين السطورِ على أملِ أنْ أجدَ غايتي ربما هناك ما لا أعرفَه ولم أشعرْ بالوقتِ حقًا، إن النفسَ البشريةَ بحورٌ من العلم لا تُدركُ نهايتُها وهناك قوىً خفية لا تعلنُ عن نفسِها إلا حين تستدعيها أنتَ، وتُزيدُ في إلحاحِك حتى تستجيبَ، و أولى تلك القوى هو القفزُ فوقَ المواقفِ الحرجةِ وتخطيها بكلِّ حكمةٍ دون الإخفاقِ، وثانيها الإقناعُ الذاتي بالثقةِ بالنفسِ والعملُ على دعمِ هذه الثقةَ فحين يتحملُ الطفلَ مسؤوليةَ إطعامُ نفسَه بنفسِه وخدمةُ نفسِه في دور الحضانةِ يكتسبُ ثقةً في نفسِه تؤهلُه لنشوةِ السعادةِ. تسللَ الوقتُ دونَ أن أشعرَ ثم تسللتْ طرقاتٌ إلى أذني فأذنتُ إلى الطارقِ بالدخولِ فما كان إلا المساعدُ:

_"يوجدُ بالخارجِ مريضٌ يا افندم وقد قامَ صاحبُ الكشفِ بالدفعِ للدخول بشكلٍ عاجلٍ".

حدقتُه مندهشًا:

_"هل هناك أحدٌ في الخارجِ؟".

_"لا يوجدُ أحدٌ ، فقط ذلك المريضُ، وتلك أولُ مرةٍ يأتي فيها إلى العيادة".

أومأتُ برأسي وأشرتُ له أن يذهبَ ويستدعيهِ للمجيءِ وأخذتُ أرتّبُ أوراقي، وأقلامي، والمسجلَ، ثم استمعتُ إلى طرقاتٍ خفيضةٍ ومقبضُ البابِ يُدارُ ويدخلُ ذلك الشخصُ، كنتُ لازلتُ أخبّئُ وجهي بينَ الأوراقِ فأشرتُ له بالجلوسِ و أنا لازلتُ منكبًا على ما أقومُ بهِ لم يكنْ هذا تجاهلًا مني، ولكن لعلّني تركتُ له مساحةً يتطلعُ إليَّ تنحنحَ وهمهمَ ليلفتَ انتباهي وهنا علوتُ بوجهِي لأتطلعَ له كانَ شابًا يافعًا ذا شاربٍ طفيفٍ، عيناهُ زائغةٌ تدورُ في كلِ مكانٍ وكأنهُ مراقبٌ ما حولَهُ، أصابعُهُ طويلةٌ يفركُها ببعضِها يبدو عليهِ التوترُ رغمَ ابتسامتهِ التي تتصدَّرُ وجهَهُ اللامعَ راقبتُهُ دونَ أن يلاحظَ وهو يتلفَّتُ يتأملُ الغرفةَ فبادرتُ أنا مرحبًا بهِ:

_"مرحبًا وأهلًا بك يا...؟".

انتبهَ لي وقالَ:

_"سامحٌ! أنا سامحُ يا دكتور".

_" أهلًا بك يا أستاذُ سامح، مِمَ تشتكي؟".

عاودَ الابتسامَ دون أنْ يجيبَ فخلدَ إلى نفسي شعورُه بالخوفِ والارتيابِ من السردِ بما تضمرُهُ نفسُه فمَن منَّا به القدرةُ على الإخفاقِ بما في نفسِه من أسرارٍ وكشفِها علنًا أمام شخصٍ غريبٍ ولو كان طبيبًا فبادرتُ وسألتُه:

_"ما هو رأيُكَ بأن نقومَ سويًّا بلعبةٍ خاصّةٍ بالأسئلةِ وقد تساعدُك تلك اللعبةُ في الحديثِ؟

أومأ برأسِه مجيبًا ومُرَحِّبًا:

_"بالطبعِ موافقٌ تعجبني لعبةُ الأسئلةِ تلك تفضلْ ابدأ أنا جاهزٌ".

أمسكتُ بقلمي وألقيتُ عليهِ أسئلةً لا تعلنُ عن نفسِها تحملُ الكثيرَ من الخبثِ غير المُعلَنِ:

_"هل أحببتَ من قبلِ يا سامح؟

صمتَ قليلًا وطأطأ رأسَهُ أرضًا، وهزْهزَها نافيًا فحدّقتُهُ ولم أعلقْ فقط أسجلُ :

_"كيفَ كانتْ طفولتُك؟ احكِ لي قليلًا عنها، تحدثْ يا سامح بكلِ شيءٍ حتى ولو صغيرةٌ بدونَ خجلٍ أو أحراجٍ أنا أريدُ منك أن تثقَ بي وكأنكَ تتحدثُ مع نفسِك".

_"حاضر! حاضر يا دكتور أنا كنتُ طفلًا متفوقًا في الدراسةِ، وكلُّ عائلتي تحبُني حتى المعلمين، و أبي وأمي ولكن ولكن...".

_"ولكن ماذا؟ هيا أكملْ، ماذا تذكرتَ؟".

_"في أحدِ الأيامِ وعند عودتي من المدرسةِ وكان معي مفتاحُ المنزلِ كانت أمي دائمًا تعطيني المفتاحَ لأنَّني كنتُ في بعضِ الأيامِ أعودُ مبكرًا ولم يكنْ هناك أحدٌ متواجدٌ في المنزلِ، قمتُ بفتحِ البابِ كما هي العادةُ ولكن تلك المرةُ سمعتُ صوتًا، صوتَ أنينٍ غريبٍ! صوتَها وهي تأنُ كان يأتي من غرفةِ النومِ، وكانتْ تقولُ كلامًا غريبًا بالراحةِ قليلًا، لقد أتعبتني، كلامٌ مثلَ ذلك وصوتُها كان عالٍ فشعرتُ بالخوفِ أن تكونَ مريضةً أو متعبةً ذهبتُ جريًا إلى غرفةِ النومِ، ولكن رأيتُ مشهدًا لن أستطيعَ أن أقولَه، يكفي ذلك يا دكتور".

_"مَنْ تلك التي كانتْ تئنُ ومع مَن؟ أكمل".

_"والدتي كانتْ في وضعٍ (...) وأنا كنتُ صغيرًا لا أفهمُ شيئًا دخلتُ وصرختُ في وجهِه قائلًا له:

_"أنتَ قمتَ بضربِها؟".

أخذتُ أبكي وكانتْ تلك أولُ مرةٍ تتركُني أبكي فيها، كانتْ تداري جسدَها. المشهدُ وكأنَّهُ أمسُ بكلِ تفاصيلِهِ لم أكنْ أعلمُ ما يفعلانه ولكنّي كنتُ خائفًا عليها ، أولُ مرةٍ أذهبُ جريًا لكي أتخبئ فيها قامتْ

باحتضاني وهي عاريةٌ أوقفتُ بكائي وأخذتُ اتأملُ تفاصيلَها وفجأةً وجدتُ أبي يجري عليَّ وعيناه بها شرٌ وجذبَني من ذراعي وألقى بي خارجَ الغرفةِ وأغلقَ البابَ أخذتُ أبكي وأخبّطُ على البابِ وأقولُ له بأني أكرهُهُ.

بدا عليهِ التَعرُّقُ، يخفضُ وجهَهُ على استحياءٍ أن يُكملَ وها أنا أدوّنُ جميعَ لقطاتِه أريدُ أنْ أعلمَ كلَّ ما يُخفيهِ في بواطنِه دونَ أنْ يدري أصررتُ على أنْ يُكملَ:

_"وماذا بعدُ؟ من كانَ معها ؟ رجلٌ غريبٌ ؟ مَن الذي قامَ بدفعِك؟".

فجأةً طرقاتٌ تقطعُ تركيزي ويدخلُ عمُ عبده ومعهُ صينيةٌ يعلوها فنجانُ القهوةِ يضعُها في صمتٍ وأنا أحدّقُه بعينينِ من نارٍ تكادُ تبتلعَه أشرتُ إلى سامحٍ بعدما خرجَ هذا المساعدُ الغبيُّ وكانَ قد قطعَ استرسالَنا:

_"هيا يا سامح أخبرني، من هذا الرجلُ قريبٌ أم غريبُ؟".

بعينين مترددةٍ ولعثمةٍ:

_"والدي سحبني من ذراعي كشاةٍ وألقى بي خارجَ الغرفةِ وقبلَ أنْ يغلقَ البابَ خلفَهُ نفحَني قلمًا حفرَ بين معالمِ صدغي وصاحَ بالسبابِ واللعنِ "لا تمدَّ يدَك نحوَ البابِ يا ابن الكلبِ يا غبيّ".

هذا اليومُ ودونَ قصدٍ حُفرَ في رأسي وظللتُ أسترجعُه رغمًا عني، كانتْ المرةُ الأولى التي أراها عاريةً بتفاصيلِها الغضّةِ الناعمةِ وكلّما كبرتُ استرجعتُ هذا اليومَ وبالأخصِّ تلك اللحظاتِ لأشعرَ بنشوةٍ لم أعرفْها من ذي قبلِ.

أنصتُّ له وسجلتُ كلَّ ما تفوَّهَ به دونَ تحركاتِه، مراقبتِه، تأمُّلِه ، فركَ سامحُ في جبهتِه ثمَ طقطقَ أصابعَه وعادَ للعثمتِه إلى أنْ طُرقُ البابُ مرةً أُخرى ليظهرَ ثانيةً هذا الشيءُ المسمى عبده لأخرجَ عن شعوري فأطلقتُ زفيري بامتعاضٍ وحدّقتُ أحاولُ كتمَ غيظي تخوُّفَ أنْ يفلتَ انفعالي أمامَ المريضِ، فاكتفيتُ بأنْ أشرتُ إليه نهائيًا ليذهبَ خارجًا:

_"لو حدثتْ كارثةٌ في الخارجِ لا تقُمْ بالدخولِ إليَّ أثناءَ الكشفُ مفهومٌ؟".

أومأ برأسِه فأعدتُ عليهِ نفسَ التنبيهِ بعصبيةٍ مفرطةٍ انتابتني وأنا أطرقُ بعنفٍ على المكتبِ جعلتُ الماثلَ أمامي ينتفضُ وأخيرًا غادرَ هذا الوغدُ. انتهتُ إلى الحالةِ أراقبُ عينَيهِ الزائغةَ وجِلسَتَهُ يضمُ قدمَيهِ كطفلٍ اصطحبَهُ أهلُه لأولِ مرةٍ إلى عيادةِ طبيبٍ دارَ حديثُه في رأسي ربَّما هو خطأٌ تربويٌّ، ولكن ما الضررُ الواقعُ لتذكُّرِ حادثةٍ بهذه التفاهةِ، هذا ما دفعَ فضولي أنْ ينتشلَني من أفكاري لأحُثَّهُ على الاستمراريَّةِ في سردِ ما في جُعبتِهِ.

_"وما كانَ تأثيرُ هذا الموقفُ عليك يا أستاذُ سامحُ؟ وما كانَ وقعُ الضررِ المتسَبَّبِ فيه عليكَ؟ أو ما الذي تعاني منه بعدما كبرتَ ونضجتَ وأصبحتَ شابًا؟".

_"أيامٌ كثيرةٌ مرَّتْ بي، وأنا في عذابٍ لا أعرفُ كيفَ أفكرُ فيها، وأنظرُ إليها وبالأخصِّ بعدَ وفاةِ والدي، كانت ترتدي ملابسًا عاريةً وضَيِّقةً وأنا كنتُ في الصفِ الثانويِّ أو الجامعةِ ولكن كنتُ أقولُ ربّما تلكَ مرحلةُ المراهقةِ و...".

_"أنظرْ يا سامحُ أريدُ منكَ أنْ تصفَ لي كيفَ كانتْ لغةُ الحوارِ بينكُما؟ وكيفَ كان تعاملُها معك؟ هل كانت تحملُ شيئًا من القسوةِ؟ أو تقومُ بتعنيفِك؟".

ابتسمَ وظهرَ صفاءُ أسنانِه وبريقُها:

_"بالعكسِ يا دكتور هي طيبةٌ، وجمالُها أخّاذٌ، أتعلمُ لو أمكنَ لتزوجتُها".

صمتَ وابتسامتُه مصاحبٌ لها خجلٌ متوارٍ عقدتُ حاجبايَ أتأمَّلُ كلماتَهُ ووقعَها المؤثرُ كيفَ لابنٍ أن يتزوجَ أمَّهُ أو يَمعِّنَ النظرَ إلى مفاتنِها، ثم جاءني صوتُه ليخرجَني من حلقةِ أفكاري:

_"لم تكنْ تلك هي المشكلةُ يا دكتور الكارثةُ أنّي لا أعرفُ كيفَ أحبُ أو كيفَ أتزوجُ وهي أيضًا تفتعلُ أشياءًا تستفزُني رغمًا عني: أحيانًا

تجلسُ دونَ ملابسٍ داخليّةٍ أو تتقلبُ في فراشِها بدونِ غطاءٍ فيأخذُ الشيطانُ ريموتَ رأسي ويتحكمُ به".

_"هل فكرتَ تعاشرُها؟ أو حاولتَ؟".

جاءهُ سؤالي على غيرِ توقُّعٍ ولكن تلك نتيجةٌ متوقعةٌ من بيتٍ يسكنُهُ أفكارٌ فاحشةٌ، كيفَ تُبترُ الأمومةَ لتغوى امرأةٌ بمساندةِ الشيطانِ في غوايةِ ابنَها اليافعَ الشبابَ؟ وكيف لابنٍ أنْ يتقبلَ هذا الأمرَ؟ يا له من عالمٍ مجنونٍ ليس فقط هذا الشابُ من يحتاجُ إلى علاجٍ، بل إنَّهُ مجتمعًا فاسدًا وهذا مجردُ نبتةٍ من بذوره العطِنةِ.

_"سأكتبُ لك على بعضِ المهدئاتِ حتى تقللَ الإثارةَ، بالإضافةِ إلى بعضِ التمارينِ الرياضيةِ والأفضلُ إذا سافرتَ لتغيرَ جوًّا في أيّ مكانٍ، حاولْ الهروبَ من وجودِك معها أنت والأفكارِ على انفرادٍ".

ضحكتُه دوَّتْ بين أرجاءِ الغرفةِ:

_"أهربُ ماذا يا دكتور؟ أقولُ لكَ تلك أمي بمعنى لا يمكنُني التبرأةُ منها".

وأثناءَ ما هو يعلو بضحكتِه سقطتْ دمعتانِ عُنوةً من عينيه يكملُ بصوتٍ حزينٍ:

_"أنا لا يمكنُني أنْ أقتربَ منها لا أريدُ أن أغضبَ اللهَ، ولكن لا أستطيعُ أريدُ أن تجدَ لي حلًا أرجوكَ أنا أحبُها، أحبُها كأمي، وكأنثى مثيرة، أنا متعلِّمٌ وخريجُ هندسةٍ لست شخصًا سيئًا أو متعاطيًا ممنوعاتٍ، ولا فاشلًا".

لذلك أصررتُ أنْ أمنحَهُ بعضَ المهدئاتِ والتي تكسبُه طاقةً إيجابيةً، وفي ذاتِ الوقتِ تجعلُه يشعرُ بالنعاسِ ، إنها مهدئاتٌ طبيعيةٌ رغم أنني لا أرجحُها للمرضى، ولكن في حالتِه قد تساعدُه أنهيتُ الكشفَ على اتفاقٍ أنه سيأتي العيادةَ بعد أسبوعين ويدونُ لي في نوتَةٍ خاصةٍ به كلَّ ما يشعرُ به وكلَّ ما يفعلُه وكلَّ ما ينوي فعلَه من دون أن يتمَه. صافحَني وهو مبتسمٌ نفسَ الابتسامةِ وأخبرني أنه لم يبُحْ بكل ما يضمرُه من أسرارٍ، لن يتمكنَ في هذا الوقتِ أن يفصحَ عنها، ربما لاحقًا. غادرَ وانكفيتُ أنا أدونُ ملاحظاتي الطبيةَ والتي حاولتُ جاهدًا ألا تكونَ تحت سيطرةِ مشاعري الشخصيةِ حتى يتسنى لي علاجُه. أغلقت الحاسوبَ بعدما وضعتُ ملفًا خاصًا باسمِ سامحِ يندرجُ تحت ملفٍ أكبرَ وجعلتُه برقمٍ سريٍّ وأغلقتُ كلَّ شيءٍ ونظرتُ في ساعتي لتعلنَ الثالثةَ عصرًا ، تأكدتُ من هذا المخلوقِ عبده أنه لن يأتي اليومَ كُشفاتٌ أخرى فغادرتُ العيادةَ وأسلمتُ نفسي لهواجسي مجبرًا، وما أن عدتُ إلى شقتي وجدتُ ما لا يمكنُ أن اتوقعَه.

الفصل السابع

أصعدُ بخطىً مشبعةٍ بالهونِ، درجاتُ السلمِ وكأنَّها سنواتُ عمري تمضي كسلحفاةٍ، وصلتُ شقتي وأدرتُ المفتاحَ في المزلاجِ. سكونٌ يعمُ الأركانَ، ولكن هناكَ عطرٌ استفزَّ أنفي أعرفُ تلك الرائحةَ إنَّها هي...أعتقدُ أنني أهلوسُ من ضغطِ اليومِ، رأسي تكادُ تنفجرُ من الصداعِ. دخلتُ حجرتي فوجدتُها ممددةً فوقَ فراشي وكأنَّ عينيها تستدعيني لجولةٍ أُخرى في أعماقِها اقتربتُ من الفراشِ وأنا مندهشٌ كيفَ ومتى جاءتْ؟! ولكنَّها قطعتْ تساؤلاتي ونهضتْ تقتربُ مني ترتدي قميصًا أسودًا بجسدِها الممشوقِ الغضِّ كحوريَّةٍ خرجتْ للتوِ من الجنةِ، التفَّتْ بذراعَيها حولَ عنقي وطبعتْ قبلةً طويلةً على شفتيَّ كنتُ أرتشفُها بنهمِ ظمآن، يداي حولَ خَصرِها وفجأةً أبعدتني قليلًا تنظرُ في عينيَّ بادرتني بالكلامِ:

_"أعلم أنك تشعرُ بالاستغرابِ من وجودي في هذه الساعةِ وكيفَ دخلتُ؟ لكنّي قُلتُ لك في آخرِ مرةٍ أنّ البائسين دائمًا تجمعُهم الليالي الحزينةُ، وأنا وأنت أكثرُ اثنين تجرَّعا من بحرِ الوجعِ في الدنيا حتى طفحَ الكيلُ".

أراقبُ عينيها المكحَّلةَ والمسحوبةَ كعينيّ نفرتيتي، كملكةٍ فرعونيةٍ تتكلمُ بلغةٍ يملأُها الشجنُ لتصلَ إلى مسامعِ قلبك فتصدقُها من دون أنْ تبذلَ مجهودًا، تأملتُ ملامحَها وهي تحاولُ أنْ تبتسمَ رغمَ

طابعِ الحزنِ النابعِ من صوتِها. جلستْ على طرفِ الفراشِ وأنا أسحبُها من يُمناها جواري:

_" احكِ لي عنكِ وكيف دخلتي؟ وكيفَ تشعرين بي لدرجَةِ أنكِ تأتي في أكثرِ وقتٍ أحتاجُ أنْ أتوهَ فيه؟ أخبريني يا زينة؛ أليسَ اسمكِ زينةٌ حقًا؟

ابتسمت في خجلٍ واحمرتْ وجنتاها، عيناها تلمعُ كضوءِ قمرٍ تبوحُ بما لا تبوحُ به شفتيها من حديثٍ، أومأتْ برأسِها مجيبةً:

_"قبلَ ذهابي كنتُ قد أخذتُ نسخةً من طابعةِ المفتاحِ على صابونٍ وأنتَ نائمٌ عندما وجدتُك وحيدٌ مثلَ حالتي أحببتُ أنْ أطمئنَ عليك، وكيفَ شعرتُ بك، ذلك السؤالُ قد أجبتُك عليه بالفعلِ في المرةِ الأولى التي سألتني بها كيف سأراكِ؟ أتذكرُ؟

ضغطتُ على كفها بين راحتَيّ وطبعتُ قبلةَ ارتياحٍ على وجنتِها، أنْ يشعرَ بك أحدٌ دونَ أنْ تخبرَهُ، ودونَ سابقِ معرفةٍ، ودونَ أشياءٍ كثيرةٍ فهذا يعدُّ نادرًا ويستحقُ كلَّ تقديرٍ ، اقتربتُ منها ضممتُها إلى صدري وارحتُ رأسَها بين أضلُعي إلى أنْ أخرجتُ ذلك الثورَ الهائجَ الكامنَ بين مساميَّ لا أعرفُ لماذا انقضضتُ عليها، مزَّقتُ ثيابها ورحتُ أبصقُ على كلِّ ما مررتُ به من خيباتٍ، وخداعٍ، وغدرِ الأقاربِ روحتُ ألهثُ بينَ منعطفاتِها، وألعقُ كلَّ رحيقِ أزهارِها كانتْ تصرخُ صرخاتِ الضحيةِ بين فكَي الوحشِ، ولكنْ على ملامحِها

المتعةُ والتلذذّ بما أفعلُ بها، لا أعرفُ كمْ مضى من الوقتِ وكلانا يسبحُ بين مسامِ الأخرِ، يبتلعُ كلَّ ما يمكنُ اختزالُه، نبضاتُ قلبي تعالتْ وتعالتْ إلى أنْ وصلتُ لذروتي وأرتميتُ جوارِها احتضنُها، غفوتُ وهي بين صدري وقد أنهكتْنا الظروفُ لا أعرفُ عنها شيئًا، ولكِنَّ صوتَها المغلفَ باليأسِ، ملامحُها الشبابيةُ، عيناها المتسعةُ التي كحَّلتْها الليالي العطنةُ تنضحُ بما لا تبوحُ بهِ.

أفقتُ من حلمي أتحسسُ موضعَها جواري فوجدتُها مشعثةَ الشعرِ، ممزقةَ الثيابِ لا أعرفُ كيفَ فعلتُ بها كلَّ هذا؟ كيفَ أخرجتُ ما بي من طاقاتٍ سلبيةٍ لأبثَّها بين شفتيها فتمنحَني حياةً؟ لا أُنكرُ ما شعرتُ به في وجودِها من ونسٍ للروحِ. طلبتُ منها أنْ تُعدَّ لي المرحاضَ فقالتْ:

_"حاضرٌ يا سيدي حالًا أنا هنا من أجلِك وملكُك افعلْ بي ما تريدُ سُبَّني، وأذِلَّني

شعرتُ لوهلةٍ باشمئزازٍ لما تقولُ، ولكني اعتدلتُ في جِلستي ومددتُ أصابعي لعُلبةِ سجائري فوقَ الكومودينو وسحبتُ واحدةً لأشعلَها في حماسٍ وأنا أشخصُ لها:

_"أخبريني ما هي حكايتُك؟ مع من تعيشين، ومن أين تأتين بأموالٍ ؟ احكِ لي عنكِ كلَّ شيءٍ".

عيناها تتأملُني بل تحدِّقني في لمعةٍ غريبةٍ والصمتُ يستحوذُ عليها فابتسمتُ أنا وافتعلتُ الضحكَ معها:

_"هيا انطقي يا فتاة، أم سنقضيها صمتًا في صمتِ".

_"سوف تعرفُ كلَّ شيءٍ بمفردِك، وحتى إذا علمتَ ماذا سيغيّرُ، هل ستُحَلَّ مشاكلي؟ أم سيريحَك ذلك فقط؟ هناك أسئلةٌ عدمُ الردِ عليها راحةٌ فربَّما عندما تعلمُ سوف يضايقُك ذلك؟

حدَّقتُها أتأملُ ما تقولُ أحيانًا فلسفتُها تجعلُك تحكمُ عليها أنَّها من الفلاسفةِ المفكرينَ، وأحيانًا فطرتُها تجعلُني أندهشُ وربَّما إباحتُها معي وكلانا في لحظةِ الذروةِ يجعلُني أتحيّرُ في أمرها من هي؟ ومن تكونُ؟ سحبتْني من يدي داعيةً إيايَ للغداءِ لا أعلمُ كيفَ ومتى أعدتْهُ طرحتُ عن رأسي كلَّ تساؤلاتِها فقط لأستريحَ، وأقنعتُ نفسي بما قالتْ لي منذُ وهلةٍ. انتهينا وإذ برنينِ هاتفي يستغيثُ وحينَ رأيتُ رقمَ المتصلِ أدركتُ أن هناك كارثةٌ فما يأتي منه إلا المصائبُ، على وجهي تقاسيمُ الغضبِ، لم أجِبْ رنينَ الهاتفِ وألقيت به بعيدًا بطولِ ذراعي ليسقطَ على الأريكةِ التي تقابلُ السفرةَ حيثُ موضعي فبادرتني بالسؤالِ:

_"ما بكَ، ماذا حدثَ؟ فقد تغيَّرَ وجهُك، مَن الذي أغضبَك هكذا؟".

وجدتُني أنفعلُ عليها موَبخًا إياها على سؤالِها:

_"وما دخلُ أهلِكِ أنتِ؟ هل ستُصادقينَني؟ اذهبي اذهبي هيا إلى الخارجِ لا تأتِ إلى هنا مرةً ثانيةً هل تفهمينَ".

جذبتُها من ساعدِها وهي ترتدي قميصَها ألقي بها تجاهَ البابِ بكتْ، تألمتْ من قبضَتي وترجَّتني أن تأخذَ حاجيتَها وستذهبُ، ولكنّي زدتُ من حماقتي سارعتُ بفتحِ البابِ وألقيتُ بها على أعتابِه؛ ثم دخلتُ للمنزلِ وأمسكتُ بأشيائها والشالَ، وحقيبتَها وألقيتُها في وجهِها نافرًا منها:

_"من تعتقدينَ نفسَك، أنتِ مجردُ عاهرةٍ ليس لكِ قيمةٌ أنا لا أفهمُ كيفَ سمحتُ لكِ بدخولِ بيتي، وتأخذينَ راحتَكِ في الحديثِ معي؟ أنتِ أنتِ حثالةٌ، جُرثومَةٌ هل تفهمينَ".

وأغلقتُ البابَ بعنفِ السنينَ لم أدرِ ما تلكَ القسوةُ الغيرُ مبررَةُ هل كلُّ ذلك بسببِ اتصالِ "تولين"؟ لماذا تتصلُ بي، لماذا تلاحقُني بعدَ كلِّ ما خلَّفَتهُ لي من ألمٍ؟ أريدُ أنْ أشقَ ثيابي وأعدوَ في الطرقاتِ مثلَ المجذوبِ أصرخُ بأعلى صيحةٍ نعمْ لم أنسَها، لم أحتملْ نسيانَها كيف دنستُ نفسي؟ نفسي التي لا تعرفُ سواها، نفسي التي طُمثتْ ملامحُها بغيابها المتعمَّدُ. ولمَ عودتُها الأنَ بعد كلِّ ما آلتْ إليه حياتي ؟ جَثوتُ على ركبتَيَّ أبكي افترشتُ سجادةَ صلاتي التي غبتُ عنها مرارًا وأعلنتُ أنْ أغتسلَ من ذنبي مهما حدثَ، بكيتُ حتى جفَّتْ مدامعي،

بكيتُ يأسي، بكيتُ غُربَتي، بكيتُ شقيقاتي اللاتي اصطبغتا بصبغةِ أزواجِهن ضدي أنا، ضدَ أخيهم الوحيدِ، جثمتُ على وجهي داعيًا لله يُخرجُ من الشدةِ قدميَّ ولعلَّ في قربِه مخرجًا.

الفصلُ الثامنُ

الفرصُ في حياتِك تشبهُ قوسَ قُزَحٍ نادرًا ما يظهرُ بين زخَّاتِ المطرِ فإن لم تنتبهْ له لن ينتظرَك، ولن يأتيك هكذا الفرصُ لذلك إنْ جاءتك وسنحتْ لك الفرصُ استغلَّها لأقصى أمدٍ، وقفتْ تتفحصُ هاتفَها بعينٍ مُغرَورِقَةٍ تتأملُ الشاشةَ كيف أن يغلقَ هاتفَه ولا يجيبُها؟ تعلمُ أنَّها كانت حبهُ الأولُ وربما الأخيرُ أو على الأقلِ الوحيدُ حتى الأنِ اخترَقَ مسامعَها صوتٌ رجوليٌّ يناديها بحزمٍ:

_"ريتال! ريتال أينَ أنتِ ؟ انا جائعٌ".

ابتلعتْ ريقَها وأزاحتْ الدمعاتِ وكأنَّما أصابَها صاعقٌ كهربيٌّ أغلقتْ الهاتفَ ودسَّتهُ أسفلَ الوسادةِ وأغلقتْ البابَ خلفَها وانطلقتْ تجيبُ هذا الأخيرَ:

_"نعم! نعم يا مصطفى أعتذرُ لم أسمع نداءك".

يبدو عليها الريبةُ تفتعلُ الابتسامةَ وأما عن الجالسِ أمامَها فهو رجلٌ مفتولُ العضلاتِ، شعرُه أسودٌ يرتدي قميصًا أبيضًا منسابةٌ أزرارُه على مصراعَيها، وبنطالُه رماديٌّ، متكئٌ على الأريكةِ، واضعٌ قدمَيهِ على طاولةٍ تتوسطُ الأنتريه، التقتْ عيناه بعينيها المرتابةِ يحدِّقُها:

_"ماذا ألن نتناولَ الطعامَ؟ أنا آتٍ من العملِ أكادُ أقعَ من شدةِ جوعي وأنتِ تعلمينَ عندما أكونُ جائعًا".

قاطعَتْه وكأنَّها تحفظُه عن ظهرِ قلبٍ مكملَةً هي الجملةَ :

_" أعلمُ تكونُ لا ترى أمامَك".

تهمهمُ في داخلِها(تُبْ عليَّ يارب من ذلك الحيوانِ الآدميّ الذي تزوجتُ به كلُّ ما يهمُه الطعامُ والفراشُ).

وصلتْ همهمتُها الأخيرةُ إلى أذنِه:

_" هل تقولينَ شيئًا؟ ".

_" لا أبدًا ، حالًا سيكونُ الطعامُ معَدًّا".

لم تكن تتوقعُ أن مطامعَها في رجلِ الأحلامِ ستنتهي بمجردِ انتهاءِ شهرِ العسلِ وظنتْ في اختيارِها لمصطفى وتفضيلِها له أنهُ من يسعدُها ويوفرُ لها كلَّ ما ينقصُها، ظنَّتْ أنَّ والدتَها كانت محقةً حين جذبتها من ساعدِها منبهةً إياها أنَّ مصطفى خيرُ الشبابِ مفتولُ العضلاتِ، وهيئتُه، وشخصيتُه الوقورةُ وبما يتكئُ عليه من إرثِ والدِهِ خيرُ اختيارٍ مشيرةً إلى سوءِ حالتِهم الماديةِ لزواجِ أمِّها من رجلِ أقصى طموحِهِ كان راتبَه الحكومي ولهثَه خلفَ لقمةِ العيشِ باستمرارٍ قائلةً :

_"" لا تُخطئي خطأي يا ابنتي ستذوقينَ مرارَ الأيامِ بمجردِ أن تنجبي طفلَك الأولَ وقتَها ستنهالُ الديونُ فوقَ رأسِكِ، وتَمُرّينَ بما مررتُ به".

فأصدرتْ تولينُ قرارَها بالموافقةِ على مصطفى الصحفيّ الشهيرِ وبطلِ الچودو توقَّعتْ أنَّ النسيانَ مثلُ السلاحِ الميري بمجردِ ضغطةٍ بالسبابةِ ينتهي كلُّ شيءٍ. لم يكنْ عبدُ الفضيلِ لها مجردُ حبٍ لم يكنْ مجردُ حلمٍ وتبخَّرَ سريعًا، بل بمثابةِ بسمةِ الحياةِ وشغفِها التي انطفأتْ بقرارِها الزواجَ من مصطفى، انتهى داخلُها كلُّ شيءٍ أرادتٍ مرارًا تظلَ بصحبةِ عبدِ الفضيلِ، جوارُه تبكي شكواها في كنفِهِ، ولكنَّه أغلقَ جميعَ أبوابَه في وجهِها حينما هاتفتهُ مؤخرًا من هاتفِها ورقمِها الذي لا يعلمُه لأنَّها ببساطةٍ غيَّرَتْ رقمَها بعد الزواجِ تظنُ أنَّها تناستْ كلَّ شيءٍ بل ومزَّقتْ صفحاتِها، ولكن ما حَدَثَ قَلَبَ كلَّ شيءٍ تفاجأتْ أنَّ مصطفى ما هو إلا وحشٌ آدميٌّ لا يرغبُ سوى اشتهاءَ أصنافَ الطعامِ المختلفةِ، واشتهاءَ جسدَها والنهلَ منها كلَّ حينٍ وكلّما استيقظَ الوحشُ الزاحفُ بين عروقِه الرجوليَّةِ، استسلمتْ للأمرِ الواقعِ، ولكنْ جاءَ عليها وقتٌ تودُّ فيه البكاءَ والصراخَ واللعنَ والسبَّ لكلِّ مقاييسَ الحياةِ، وأولُها لنفسِها التي ألقتْ بها في جُبِّ الوحشِ وأعلنتْ الحربَ على تلكَ النفسِ المتمردةِ، ولكنْ يومًا ما وتقريبًا منذُ شهرين حيثُ ذهبَ مصطفى لتغطيةِ أحداثٍ هامةٍ خارجَ البلادِ كانتْ الوحدةُ تقتلُها ودمعُها يزحفُ على وجنتَيها كالجمرِ. اشتياقُها لحبِها الأولِ لَهَثَ في قلبِها لَهْثَ الليثِ خلفَ فريستِه، واشتياقُه لمذاقِها بعدَ جوعٍ كافرٍ جلستْ تفكرُ ممسكةً بالهاتفِ كجنينٍ بين أناملِها ترتعدُ، تبكي بخوفٍ، وما إن بثَّتْ رقمَه

علي الشاشةِ، انفرجتْ اساريرُها ، ضغطتْ اتصالًا وظلتْ عيناها عالقةٌ في انتظارِ كلمةٍ أو حرفٍ منه يصلَ إلى مسامعِها؛ فتردُ إليها الروحُ بعد فراقٍ وبعد لحظاتٍ جاءها صوتُه :

_"الو. الو. الو من معي، هل تسمعُني؟".

تستمعُ ولا تجيبُ تزيحُ الدمعاتِ، تبتسمُ، تقبّلُ الهاتفَ، ترتعشُ شفتاها وتجيبُ أخيرًا بكلمةٍ واحدةٍ

_"وحشتني".

للوهلةِ الأولى لم يعرفْها، ولكنْ في أقلِ من الثانيةِ لطمَهُ صوتُها المهترئُ بين رئتيه أيقنَ مَن صاحبةُ الصوتِ، صمتَ للحظةٍ يبتلعُ الصدمةَ التي أعادتْه إلى حيثُ ألقى كلَّ ما بجُعبتِه في أعماقِ المحيطِ بلا رجعةٍ لن يغفرَ لها ما اقترفتْهُ في حقِه. لم يجِبْ وأغلقَ الاتصالَ قبل أن يزرفَ دمعةَ مرَّت من عينِه اليسرى المتصلةً بصدرِه، المتصلةُ عبرَ نفقِ القلبِ حاولتْ تعيدُ الاتصالَ به، ولكن كانَ تصرفُه أسرعَ منها وضَعَ الرقمَ في قائمةِ المحظورين. نعم كيفَ يطالبوننا بالغفرانِ السريعِ ونحنَ من قدموهم قربانًا بأبخسِ الأثمانِ إرضاءًا لأمورٍ لا نعلمُها، إرضاءًا لرغباتِهم الخارجةِ عن حدودِ الإنسانيةِ، رغبات أقلُّ ما يُقالُ عليها أنانيةٌ مدمرةٌ، مَن يتقبلَ تلك الأمورِ؟

منَ الغريبِ أنَّ القانونَ يُجرّمُ قاتلَ الجسدِ ولم يُشرّعَ قانونًا لقتلِ النفسِ والقلبِ، وقتلُ الروحِ كيفَ لا يجازون هؤلاءِ؟ للأسفِ القانونُ ماديٌّ يدينُ بما فعلتُه ماديًا وليسَ ما اقترفتُهُ في النفوسِ قد تدمّرُ أشخاصًا بكلمةٍ، بفعلٍ دنيءٍ وتظلُ على قيدِ الحياةِ لا يدينُك أحدٌ، ولا تجرمك الدولةُ، ولكن إن قتلتَ جسدَ أحدِهم ستعاقَبُ بالإعدامِ.

جاءها صوتُه الأجشُ فارتابتْ بينما هي تعدُّ له الغداءَ فلتَ من يدِها كوبُ ماءٍ تهشَّمَ فصاحَ صوتُهُ كزئيرٍ يلعنُ ويسبُ فيها وينعتُها بالفشلِ. انتهتْ سريعًا وتوجَّهتْ حاملةً بصينيةٍ على يمينِها فوقَها أشهى الأطعمةُ واضعةٌ إياها أعلى الطاولةِ المجاورةِ له وهمَّتْ بالانصرافِ، ولكنَّه لم يمكنْها من ذلكَ سحبَها من معصمِها بقوةٍ جاذبًا إياها ليرغمَها على المكوثِ ملاصقةً له على الأريكةِ اقتربَ منها يتشممُ خصلاتِ شعرِها ناظرًا إلى جسدِها المُطلُ من فتحةِ الصدرِ لقميصِها الأسودِ فانهالَ عليها بالقبلاتِ رغمًا عنها بينما كانت متأففةً تبكي بصوتٍ مكبوتٍ يضغطُ بأصابعِهِ المنتفخةُ من فرطِ الشهوةِ، يطبعُ بصماتِه على جسدِها لتنتبهَ أنَّها تحملُ إسم هذا الكائنِ ولن تتمكنَ من الإفلاتِ منه قاومتْه بعضَ الوقتِ، ولكن في النهايةِ استسلمتْ وهي تعتصرُ ألمًا في حينِ أنَّها بين شباكِه كفريسةٍ نالَ منها. خفقت فكرةٌ جديدةٌ في ذهنِها ستلجأُ إليها لاحقًا في الوصولِ إلى

مبتغاها مما جعلها تبتسمُ فرآها مصطفى ظنَّ أنَّها تبتسمُ له فعادَ لطبعِ ختمِ شفتيه على مسامِ جسدِها الغضِّ.

جلسَ يتفحَّصُ هاتفَهُ تتزاحمُ جميعَ الذكرياتِ السوداءَ إلى ذاكرته، وما أنْ تذكرَ عبءَ العملِ في عيادةِ الدكتور السلاموني وما خاضهُ بقدميه في هذا الدربِ الموحشِ نفضَ عنه كلَّ شيءٍ وانتبهَ إلى موعدِ المرضى المنتظرين بالعيادةِ. نهضَ من مجلسِه توجَّهَ إلى المرحاضِ لأخذِ حمامٍ باردٍ يجعلُه ينتعشُ، ويزيلُ عنه ما علِقَ في ذهنِهِ من أوجاعٍ. انتهى وارتدى ثيابَه، وأغلقَ بابَ الشقةِ خلفَه وكذلكَ أغلقَ جميعَ موضوعاتِه المؤلمةَ المثيرةَ الضيقَ في نفسِه صانعًا ابتسامةً باحترافيةٍ وتعاهدَ مع ذاتِه أنّه يجيدُ تلاحمَها على شفتَيه ولن يدعَها تلوذُ بالفرارِ هكذا ظنَّ وهكذا عاهدَ نفسَه، ولكن هل يستطيعُ؟ هل بإمكانِه محوُ بثورَ اليأسِ وهو طبيبُ النفوسِ ومعالجُها؟

الفصلُ التاسعُ

إنْ تحالفتْ السحبُ وامتلأتْ بالضبابِ فأيُّ نهارٍ يجعلُها تنقشعُ؟ إنْ خضعتْ النفوسُ للطمعِ فأيَّ ضوءٍ يزيلُ عتمتَها؟ إنْ اعتنقتْ القلوبُ الحقدَ والطمعَ تلاشتْ منها صلاتُ الرحمِ وجميعُ صِلاتِ الإنسانيَّةِ، جدرانُ منزلٍ عتيقٍ تحوي قاطنيها رُبما الجدرانُ ترفقُ بساكنيها أكثرَ من البشرِ تَربتُ على أكتافِهم الممزقةِ ألمًا بينما يتحالفُ البشَرُ مع أغراضِهم على حسابِ مبادئهم وأخلاقِهم. غرفةُ جلوسٍ بها أثاثٌ لاستقبالِ الضيوفِ على اليسارِ في وجهةِ البابِ، وعلى الجانبِ المقابلِ طاولةٌ مستويةٌ للسفرةِ مكونةٌ من أربعةِ مقاعدَ تجلسُ على أحدِهم سلوى تتطلعُ إلى وجهِ زوجِها الجالسُ في المقعدِ المقابلِ لها ممسكًا بين كفَيهِ حفنةُ أوراقٍ وجوارُ كفِّهِ مطفأةٌ تعانقُ عشراتِ السجائرِ المنتحرةِ بينَ شفتيهِ وعلى الجانبِ إحداهم لازالتْ مشتعلةٌ تجاهدُ لتحيا قليلًا فسارعتْ أصابعُهُ لتدسّها بين شفتَيهِ إلى أنْ لقيتْ حتْفَها، عيناها عالقةٌ على ملامحِه الشاحبةِ بينما هي متكئةٌ برأسِها على معصمِها رفعتْ حاجبَها وقطعتْ الصمتَ المُطبقَ على كليهما :

_"وما بعدَها لك؟ جعلتني أقاطعُ شقيقي الوحيدَ هل أنتَ سعيد بذلك؟ ميراثُه وشقتُهُ! لا أعلمُ ما الذي جعلني أطاوعُك، يا ليتني...".

قبل أن تكملَ لاحقها بنظرةٍ من أسفلِ عويناتِه السميكةِ صائحًا:

_"هاااااا ستندبينَ لي؟ ألمْ ننتهِ من ذلك؟

زفرتْ بنفادِ صبرِها واستطردَتْ:

_" أليسَ يكفي قد أخذت شقّتي بدونِ أيّ مجهودٍ ولم تقمْ بشراءِ عفشِها ولم تكتبْ لي قِيمتي مثل باقي الناسِ؟".

_" نعم يا روحَ أمّك؟! تذكرينَ فقط عفشَ أمك؟ ولا تذكرينَ أنكِ حفيتي خلفي؟ وكنتُ أصغرَ منكِ بسبعِ سنين؟ أليس بكافٍ أخذتِ شبابي؟ ولم يعجبكِ أيضًا؟ والآن تندبينَ لأنّي آمّنُ لك مستقبلك أنتِ وأولادك؟ نسوان هم صحيح".

قطبتْ حاجبَيها، وزمّتْ شفتيها ونكَّستْ رأسَها لم تعرِهُ أيَّ جوابٍ لما ذكرَه صمتتٍ قليلًا ثم انتبهت لشيءٍ ما:

_"و وصيةُ والدي يا رشوان؟ ماذا أخبرُه عندما ألقى ربًا كريمًا؟".

لعقَ آخرَ أنفاسِ سيجارته ثم دفنَها جوارَ مثيلاتها، عيَّرها نظرةَ استهجانٍ:

_" قال يعني أنتِ متقية ربنا أوي يا أختي ما بلاش نتكلم قفلي واحمدي ربنا إني متجوزتش عليكِ يا همي الثقيل".

تطايرَ الشرُ من عينيها منبهةً إياهُ أنْ يصمتَ. ظلَّت تفركُ أصابعَها من فرطِ غضبِها، ثم قطعتْ الصمتَ مرةً أخرى متسائلةً متصنعةً نبرةً هادئةً:

_"طب وصلت لفين؟".

ابتسمَ لها وخلعَ عويناتِه ونحَّاها جانبَه:

_"أيوة كده يا سوسو خليكِ حلوة وهو أنا بعمل كل ده لمين؟ مش ليكِ؟ وللعيال؟".

غمزَ لها بعينِه وأمسكَ بكفِها يقبلُها في حينِ توردَتْ وجنتاها لأسلوبِه الناعمِ فهي تعشقُهُ، تذوبُ في ابتسامتِه؛ ابتسامتُه وحدُها كفيلةٌ أنْ تجعلَها تبيعُ كلَّ شيءٍ من أجلِه ولو كانَ أخاها الوحيدَ، ولو كانَ إرثُها مقابلَ قربِه منها وبثِّهِ لكلامِهِ المعسولِ في أذنيها".

أمسكَ الأوراقَ رتبَها وهو يكملُ حديثَهُ:

_" دي كام شهادة من دكاترة كبار طبعًا قبضوا علشان شهادتهم دي مش قليلة إنّ المرحوم أبوكِ مكنش في كاملِ قواهِ العقليَّة وإنه في الأصل مكنش سايب أي حاجة للدكتور الحيلة غير شقته اللي ساكن فيها".

أومأتْ تؤيدُ رأيَهُ وأقنعتْ ضميرَها أنَّ ما يفعلُه ما هو إلا خيرًا لها ولصالِحِها فتعاونَت معه في كلِّ ما يتفوهُ به، واسترسلَ رشوان في الإجراءاتِ الموجبُ الانتهاءُ منها. اقتربَ وهو يخفضُ صوتَه هامسًا :

_"وبعدين متنسيش فترة علاج أخوكِ الخبر ده في حد ذاته يهز سمعته بين مرضاه، ويقفله العيادة. فيبقي كرم أخلاق مني إني منشرش الخبر ده".

أخرجتْ شهقةً فُجائيةً تباعًا لما أخبرَها به زوجُها، كيفَ له أنْ يتاجرَ بمرضِ أخيها؟! وتذكرَتْ أنَّ تلك الحقبةُ كانت ستقضي عليهِ وقتَ وفاةِ والدتِها، وربما هي ما أسرعَتْ من نهايةِ حياةِ والدِها، كيف كانَ عبدُ الفضيلِ يعاني خلالَ دراستِه وتوقُّفُهُ عن الدراسةِ؟ وتوقُّفُهُ وامتناعُهُ عن الطعامِ، ومرورُهُ بحالةِ من الاكتئابِ وقتئذٍ كان بالثانويةِ العامةِ، مما جعلَه يرسبُ ويلجأُ لإعادةِ السنةِ الدراسيةِ حتى تحسنتْ حالتُه الصحيةُ كان قلبُ والدِه ينفطرُ ألمًا على مستقبلِ وليدِه الوحيدِ وعلى فتاتين قد اطمئنَ قلبُه عليهم قبلَ وفاةِ زوجتِه وسندِه وشريكةِ حياتِه، كانَ عبدُ الفضيلِ يمرُّ بأوقاتٍ عصيبةٍ من حالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ استمرت تسوءُ إلى أنْ تملَّصَ من عنقِ زجاجةِ الثانويةِ العامةِ بمجموعٍ خرافيٍّ لم يكنْ أحدًا يتوقعُه، ولكن قد خالفَ توقعاتِ الجميعِ واضعٌ نصبَ عينَيه رسمَ ابتسامةٍ على شفتَي والدِه وظهرُه المنحني من كسرةِ الأيامِ لوحدتِه بعدَ فراقِ حبيبتِه وزوجتِه، وقد استقرَّ عبدُ الفضيلِ على دراسةِ الطبِّ

النفسيّ مشيرًا إلى ما مرَّ بهِ في الحقبةِ السالفةِ : _"أنا هدخل بمشيئة الله طب نفسي".

تجهَّمَ وجهُ والدِه لائمًا:

_" ليه يا ابني كده؟ هتتأثر أكتر، أنت قلبك حساس وبتتأثر بسرعة، أنا مش موافق".

اقتربَ من والدِه يقبلُ يدَهُ وكتفُهُ مختبئٌ في كنفِهِ:

_"ليه بس يا حاج؟ ده مجال مهم جدًا ومنتشر دلوقتي عن زمان الناس كلها بقت محتاجة علاج نفسي، الكل بيعاني وأنا واثق بأمر الله إني هرفع رأسك".

ابتسمَ والدُه وعانقَهُ عناقًا دافئًا وكأنَّهُ يشبعُ صدرَه من أنفاسِ وليدِه يرى نفسَهُ في عيني ولدِه؛ نفسَ طموحِهِ، واصرارِهِ، نفسَ إرادتِهِ في التغلُّبِ على المعاناةِ، السيرِ فوقَ الشوكِ، والمُضيّ في طريقِ اللهبِ إلى أنْ يتخطَّاهُ فما كانَ منه إلا أنْ باركَ قرارَ ولدِه:

_" أنا موافقٌ يا حبيبي، أنا بس خائفٌ عليك يا ابني؛ المجال ده صعب وبيأثر على اللي بيمارسه، كل إنسان مليان زي ما قولت مبالك الطبيب النفسي بيعاني قد إيه، زي الإسفنجة اللي بتمتص آلام الناس وتتشبع هي وحدها ألم".

_"متخفش يا بابا أنا ابنك برده وبصراحة فترة تعبي ويأسي اللي فاتت لما قدرت اتخطاها أيقنتُ أنَّها إشارةٌ من الله علشان احسّ بألمِ المريضِ النفسي وأكون أقرب ليه في تشخيص حالته".

_"خلاص يا ابني على بركة الله".

وهكذا خاضَ عبدُ الفضيلِ في دراستِه والتي لم تقتصرْ على السنواتِ الجامعيةِ بل أنهى رسالةَ الماجيستيرِ مما لفتَ انتباهَ رؤسائه، والأطباءِ المشرفين عليها وعلى رأسِهم الدكتورُ السلاموني.

اتكأتْ سلوى برأسِها للخلفِ ساندةً إياها على أقربِ جدارٍ لموضعِها متذكرةً كلَّ تلك الأيامِ كيفَ كانَ يعتبرُها عبدُ الفضيلِ أمَّه الثانيةِ؟ ويتهللُ حينَ يُحالفَهُ النجاحُ مسرعًا إلى حضنِها يبثُ لها البشارةَ منتظرًا أن تربتَ على كتفِه كيفَ تبدَّلتْ القلوبُ؟ كيفَ محى الزمنُ ذكرياتِ الأخوَّةِ، واقتلعَ الودَّ، والحبَّ من جذورِهما ليبدلَهما بقسوةٍ، وطمعٍ، وأنانيةٍ مفرطةٍ؟ لا ترى سوى أسفلَ قدمَيها. أفاقتْ من شرودِها ودمعاتُها تتقاذفُ، أزاحتْها بظهرِ كفِّها، أمسكَتْ بيدِ رشوان:

_"أرجوكَ يا رشوان متأذيهوش ده بردو أخويا الصغير ومليش غيره أبوس إيدك".

وجذبتْ يدَهُ لتقبلَها متوسلَةً فسحبَها سريعًا وبدا عليه ملامحُ الغضبِ، ولكنَّه تصنَّعَ الهدوءَ كعادتِهِ مربتًا على شعرِها:

_" متخافيش. معقول يعني هأذي خال عيالي؟ بس على الله هو ميحرجمش بقى وإلا...".

_"و إلا إيه؟ هتعمل إيه يا رشوان؟ ورحمة أمواتك تسيبه في حاله وأنا. أنا مستعدة أعمل أي حاجة تطلبها".

حدَّقَها بنظرةِ اشمئزازٍ:

_"هتفضلي طول عمرك هبلة أف أنا زهقت".

زفرَ زفرةً قويةً وأزاحَ مقعدَه تاركًا إيَّاها وحدَها في عالمِ الذكرياتِ لم يعرها أدنى انتباهٍ.

الساعةُ تعلنُ السابعةَ مساءًا جلسَ يتفحصُ سجلاتِ المرضى وتشخيصَ الدكتورِ السلاموني، ضغطَ زرَ تشغيلِ المسجلِ واستمعَ إلى حديثِهم. كلُّ حالةٍ على حدة إلى أنْ طرقَ البابَ وانفتحَ و ما كانَ الطارقُ إلا المساعدُ أخبرَه أنَّ هناك حالةٌ كانت تتابعُ مع الدكتور السلاموني، ولكن دومًا تتحفظُ على ذكرِ اسمها لسريةِ الأمرِ وما كانَ السلاموني إلا أنْ يستجيبَ لرغباتِ مريضتِه يكفي أنَّها سخيةٌ جدًا، وكان دومًا ينتظرُ حضورَها، فأمرَ عبدُ الفضيلِ المساعدَ أنْ يُدخلَها وانكفى على أجندَتِه يكتبُ بعضَ العناوينِ بالإنجليزية وجوارهُ رقمُ الكشفِ والساعةِ. لم ينظرْ نحوَ البابِ حتى يتركَ لتلكَ القادمةِ مساحةً متسعةً من الراحةِ، طرقةٌ خفيضةٌ وأزاحت البابَ ودلفتْ

بخطىً هادئةٍ مقتربةً من المكتبِ وجلستْ على المقعدِ المقابلِ للدكتورِ، ألقى عليها التحيةَ ولازالَ وجهُه مندسًا بين الورقِ، ولكنْ ما إنْ رفعَ رأسَه فخلعَتْ هي نظارتَها الشمسيةَ ليتفاجأ بل ينصدمَ! فما المريضةُ إلا آخرُ من كانَ يتوقعُ كانتْ هي..".

الفصلُ العاشرُ

إنْ غاصت قدماك فوق الأرصفةِ المشبّعةِ بالأتربةِ، والمشبعةُ أيضًا بالشحاذين، والفقراءِ هناك حُذفتْ القيمُ والمبادئُ، هناك دستورُ السعيّ فقطْ من أجلِ البقاءِ لا يمتلكون ما تملكُهُ أنتَ وأنا من رفاهيةِ التفكيرِ والثقافةِ، والمعرفةِ. المعرفةُ الوحيدةُ السائدةُ أنْ يملكونَ طعامًا لكي لا يموتون جوعًا أما عن المأوى فلا يحملونَ همًا فهناك المتسعُ من الأرصفةِ تأويهم وتعانقُهم أكثرَ من ذويهم. إنْ تعرقلتَ وسطَهم ستجدُ الكثيرَ من المحرماتِ التي تُمارَسُ سرًا، فلا تندهشْ مَثَلُهم مثَلُ القططِ والكلابِ لا تملكُ عقولًا. قلما تجدُ منهم من يملكُ عقيدةً أو يُصلي ونادرًا جدًا نُدرةَ المياهِ في صحراءٍ قاحلةٍ. لا تجدُ بينهم الفضيلةَ، لا تطلقْ حكمَك يا صديقي فهؤلاءِ لم يجدوا مَن يوجهُهُم وما واجهَهُم من صراعاتٍ دفعتْ بهم إلى التهلكةِ من شحاذةٍ، أو تعاطِي المخدراتِ أو السرقةِ. قد تكونُ جيناتُهم تحملُ جزءًا هينًا من الإجرامِ، ولكن حقيقةُ الأمرِ يا عزيزي فالمجتمعُ هو المحَرِّكُ الأولُ للجريمةِ. لم يُعالجْ ولم يُصلحْ، فقط ما فعلَه هو أن يحيد بعينَيهِ عن هؤلاءِ واعتبارَهم كلابًا ضالةً تتسخُ ملابسَك إن اقتربتَ منهم، فقط تبصقُ عليهم وتسرعُ كي لا يلحقونَ بك طلبًا وإلحاحًا في بعضِ المالِ، ولكن أيُّ حياةٍ تلك التي يحيونَها ككائناتٍ لا تملكُ مَن يَرفقُ بهم سوى الله، كم من واجبٍ قد نفَّضَ المجتمعُ يدَيهِ عن آدائه في سبيلِ هؤلاءِ والكثيرين أمثالَهم. حينَ تشغلُ التلفازَ

ستجدُ آلافَ البرامجِ الثقافيةِ، وآلافَ التبرعاتِ للجمعياتِ الخيريةِ والمضيّ قدمًا في السعيّ نحو الأفضلِ، ولكن أيُّ أفضلٍ في أنظارِهم؟ هل الأفضلُ نحو الشهرةِ لجامعي النقودَ المُحتِّينَ على بناءِ الجمعياتِ، وفلاشِ الكاميراتِ، والأضواءِ حولَهم؟ أيُّ أفضلٍ؟ ولازالَ يزدادُ عددُهم أكثرَ من عددِ الذبابِ في الطريقِ؟ لماذا لا يتبنَّى المجتمعُ مَن جلبَهم من رحمِ الفقرِ؟ من جلبَهم وألقى بهم بين الطرقاتِ ضالين لا يملكونَ سوى السعيَّ فقط للبقاءِ.

إنْ أردتَ رؤيةَ الحقيقةَ فلا تشاهدْ البرامجَ الإعلاميةِ المُحنَّكةِ بعدَ ما يأتي الإعلاميون بملابسٍ ويلقونَ حفنةً قليلةً من المالِ في وجهِ هؤلاءِ لعملِ حلقةِ برنامجٍ أو غيرِه، وبعدَ الانتهاءِ كلٌّ يمضي في سبيلِه لا يعلمُ بحياتِه ويومِهِ سوى اللهُ، لا يرزقُهُ قوتَ يومِهِ سوى اللهُ، أما المجتمعُ فهو كعاهرةٍ تنجبُ من السفحِ وتلقي بمصيبتِها على الأرصفةِ تحيدُ بوجهِها وتنبذُهم وكأنَّها البريئةُ العفيفةُ وهم المجرمون، لا تمضوا كالنعامِ تختبئون من مواجهةِ الواقعِ بدفنِ رأسِها بين الرمالِ. على بُعدِ مسافةٍ ليستْ ببعيدةٍ قطنَ هذا الشابُ المدعو "سامحُ" هل تتذكرونَ قصتَه؟ يقطنُ هناك مع امرأةٍ في نهايةِ الأربعينَ نعم! إنَّها والدتُه صاحبُ تلكَ المشكلةُ التي دعا إليها الطبيبَ. شقةٌ من غرفتين صغيرتين تحوي إحداهما مكتبةً وبعضَ أدواتِ الموسيقى فسامحُ يهوى العزفَ ويمتلكُ جيتارًا كما أنهُ يملكُ وسامةً وبياضًا ملفتًا ورغمَ ذلك ليسَ له فتاةٌ يرتبطُ بها، ابتسامتُهُ بها حياءٌ. اقتحمَ ضوءُ النهارِ

غرفتَهُ كي يوقظَه رغمًا عنه فإحدى ضرفتي الشيشِ بها كسرٌ يتسللُ منها الضوءُ ليصلَ إلى عينيه ويرغمَه أنْ يستيقظَ، تثاءبَ ومدَّ أصابعَهُ يتحسسُ الهاتفَ محاولًا أنْ يفتحَ عيناهُ ليعلمَ كم الساعةُ؟

سامحُ تممَ دراستَهُ في كليةِ التربيةِ النوعيةِ قسمِ موسيقى، ولكن لم تكنْ الشهادةُ عكازًا يستندُ عليهِ أحدٌ لذلك بعدما أنهى الدراسةَ سارعَ بالالتحاقِ بأيِّ وظيفةٍ يقتاتُ منها فعملَ_ ويترـ في إحدى المقاهي الحديثةِ والتي تُدعى (كافيه). على الجانبِ الآخرِ كانَ يقومُ بالعزفِ في حفلاتِ العيدِ ميلادِ لأصدقائه وأحيانًا في الأفراحِ وما يتحصلُ عليه من هذا وذاك يساهمُ بالكادِ في متطلباتِه، لا يملكُ رفاهيةَ أنْ يكوِّنَ نفسَه مثلَ كلِّ شابٍ. وأمّا عن والدتِه فهي امرأةٌ جميلةٌ، مثقفةٌ تهوى الزينةَ، والملابسَ الانثويةَ المتحررةَ، ولكن هذا وقتما كان زوجُها على قيدِ الحياةِ بدأتْ المعاناةُ بعد وفاةِ زوجِها، نهضَ سامحُ من فراشِه وتوجَّهَ إلى المرحاضِ حتى يأخذَ حمامًا دافئًا يساعدُه أنْ يفيقَ، نادى على أمِّه ولكن لم يأتِه جوابٌ فتوجهَ حاملًا المنشفةَ وأدارَ مقبضَ البابِ يدخلُ إلى المرحاضِ ليتفاجأ بها تستحمُّ عاريةً فصرختْ فيه:

_"إيه دا حد يدخل كده؟ يلا امشي".

نهرتْهُ فخرجَ وقد أغلقَ البابَ بقوةٍ كادتْ تحطمُه، ارتعشَ جسدُه مما رأى، وانتابتْه هزّةٌ واثارةٌ، ورغبةٌ جنسيةٌ عارمةٌ اشعلتْ جسدَه. دخلَ

إلى غرفتِه عصبيًّا وهمَّ يرتدي ثيابَه للخروجِ. بعدما انتهى كانتْ هي انتهت من حمامِها وخرجتْ من المرحاضِ لا ترتدي سوى ملابسًا داخليةً _بكيني_ وذهبت إلى غرفتِه تناديه تلعثمَ ولم يجبْها، ولكن خطرَ على ذهنِه فكرةٌ جيدةٌ:

_"بقولك يا ماما أنا ملاحظ إن أعصابك تعبانة وزهقانة صح؟".

_"اه والله بس هعمل إيه هروح فين يا حسرة؟".

_"بصي بقى أنتِ تتصلي بأختي نيڤين وتعالي كلنا نروح شرم نغير جو يومين".

فرحتْ وتهللَ وجهُها فحدَّثَ نفسَهُ داخليًا:

_"أتمنى أقدر اطبق اللي الدكتور نصحني بيه".

_"أنت اتجننت يا واد ولا إيه؟ بتكلم نفسك؟".

نظر إليها مبتسمًا محاولًا غضَ بصرِه عنها، وجاء بالهاتفِ كي يتصلَ بأختِه نيڤين التي بمجردِ طرحَ الأمرَ عليها تهللَت فَرِحةً وكذلك أمُّه التي تعاني من الوحدةِ وتجعلُها تتصرفُ كفتاةِ ليلٍ لا تعي أنَّ هذا ابنُها فلذةُ كبدِها من تغربِه بمفاتنها. رحبَ سامحُ بتهليلِ أخته وأمه، ثم ودعَها منصرفًا إلى عملِه بالمقهى محدثًا نفسَه في الطريقِ:

_"آآه يا لولا لو مكنتيش أمي كنت كلتك. استغفر الله العظيم أنا بقول إيه ، سامحني يارب".

وطأتْ قدماه أبوابَ المقهى وارتدى ملابسَ العملِ الرسميةَ وراحَ يطوفُ هنا وهناك إلى أنْ جاء وقتُ الانصرافِ وتذكرَ أنَّ عليه تقديمَ إجازةٍ للقيامِ بالعطلةِ الصيفيةِ التي كان قد اقترحها. أشارَ إلى زميلِه واتفقَ معه أن يقومَ بالعملِ بدلًا منه إلى حين عودته، وحين علمَ صاحبُ المقهى وافقَ على سبيلِ أنَّ هناك البديلَ عنه. عادَ إلى المنزلِ يدعو أنْ تكونَ أمه غفَت، خطى بخطواتٍ هادئة يتلصصُ النظرَ إلى جسدِها الفاتنِ الغضِّ والممددِ على الفراشِ، ثم أغلقَ البابَ ودخلَ إلى غرفتِه يفكرُ ويفكرُ ويفكرُ إلى أن ذهبَ في نومٍ عميقٍ وعند سطوعِ النهارِ كان عليه أن يُعدَّ حقيبتَه للسفرِ وكذلك أمه ليلى وظلا كلاهما في انشغالٍ إلى نهاية اليوم إلى أن هاتفتهُ أختُه نيڤين التي حثتهم أن ينتهوا لقد حانَ وقتُ السفر والساعةُ تعلنُ الثالثةَ فجرًا وهو موعدُ الأتوبيس الذي سوف يستقلونه إلى الغردقةِ، توجهَ الجميعُ إلى المحطةِ حاملينَ الأمتعةِ. في حينِ أنَّ هناك من طرقَ البابَ صباحًا حاملًا ورقةً بها لعناتٌ فهبَّ من نومِه يفتحُ عينيه، يتململُ في نهوضِه إلى أن وصلَ إلى مقبضِ البابِ يفتحُ للطارقِ فوجدَ ماثلاً أمامَ عينيه شرطيٌّ يحملُ له ورقةٌ جعلتهُ يشهقُ. كان آخرُ ما يمكنُ توقعُه أنها...

الفصلُ الحادي عشرَ

غابتْ الشمسُ وتوارت بين السحبِ، الصقيعُ يلتهمُ القلوبَ قبل الأجسادِ، ويلتهمُ الضمائرَ، ممددةٌ على الفراشِ مرتديةً ثيابها الأنثويةَ الناعمةَ، قميصٌ من اللون الأزرقِ يعلو صدرَه دانتيلٌ أبيضٌ تعلو بأقدامِها تُراقصُهم تعانقُهم في بهجةٍ، محتضنةً بين أناملِها هاتفَها الجوالَ تدبرُ خطةً وأخيرًا! ضغطتْ بعضَ الأرقامِ فجاءَ الصوتُ على الطرفِ الآخرِ:

_"أيوة يا فندم تحت أمرك الدكتور هيجي في تمام الساعة سبعة".

_"عيادة الدكتور عبد الفضيل أليس كذلك؟".

_"أيوة يا فندم هي عيادته، لقد نقل عيادته هنا".

ترجعُ برأسِها للخلفِ تتكئُ على حافةِ الفراشِ تذكرتْ حينما ذهبت بقدميها نحو عيادتِه القاطنةِ في وسطِ البلدِ وهناك وجدت لافتةً مثبتةً مضمونُها تم نقلُ العيادةِ، ومُرفقٌ الهاتفُ الخاصُ بالحجزِ وذلك بالطبعِ كي يباشرَ عملَه في عيادةِ دكتور سلاموني. تُهزهزُ قدمَيها فرحةً و يدورُ في عَقلها أفكارٌ شيطانيةٌ لا أحدَ يعلمُها سواها قفزتْ من رقدتِها واتجهت نحو خزانةِ الملابسِ تختارُ بينهم ثوبًا زاهيَ اللونِ عاريَ الصدر. بدَّلتْ ثيابَها واضعةً ألوانَ الزينةِ على وجهِها،

واتشحتِ بإيشاربٍ كي يخفيَ بعضًا من وجهها وارتدتْ نظارةَ شمسٍ وخرجت من المنزلِ تعلمُ وجهتَها، ولكن إلى أين تذهبّ تلك المرأةُ؟

في حينِ هناك بعيدًا وسطَ البلدِ وبين صمتٍ يعمُ الأجواءَ مكثَ عبدُ الفضيلِ خلفَ مكتبِه يقلبُ في بعضِ الأوراقِ يدوّنُ ملاحظاتِه على بعضِ مرضاه إلى أن أخرجَه رنينُ الهاتفِ من صمتِه وهمهمتِه ليس بموعدٍ للكشفِ مَن يا تُرى؟ كان هذا لسانُ حالِه وهو يرفعُ سماعةَ الهاتفِ الأرضي الموضوع على يسارِه فوق المكتبِ :

_"ألو. أيوة أنا الدكتور أي خدمة؟".

على الطرفِ الآخر:

_"ياريت حضرتك تشرفنا محتاجين مساعدتك ضروري".

_"أقدر أعرف مين معايا؟ وأي نوع المساعدة يا فندم؟".

بصوتٍ حازمٍ:

_"مديريةُ أمنِ الدولةِ معَك يا دكتور هناكَ قضيةٌ شائكةٌ جدًا ومش واضحة المعالم ومحتاجين نعرف دواعي ارتكاب الجريمة فيها".

انتابَه بعضُ التوترِ، ولكن صوتَه متهللٌ:

_"أنا! أنا مش عارف أقول إيه غير إني تحت أمركم، وده شرف كبير ليا لاستدعائي بالتعاون مع حضراتكم".

_"إحنا بلغنا صيتك في المجال النفسي والحقيقي تم ترشيحك من قِبل أحد الدكاترة المتعاونين معانا وهو موضع ثقة".

_"أقدر أعرف مين؟!".

في نفسِ الوقتِ كان يردِدُ نفسَ الاسمِ سرًا:

_" دكتور السلاموني ".

ابتلعَ الدهشةَ وكادَ يختنقُ، ولكن ربّما من شدةِ الفرحةِ أنهى مكالمتَهُ وأغلقَ الهاتفَ. هندمَ ثيابَه وخرجَ من مكتبِ عيادتِه متوجهًا إلى مديريةِ الأمنِ واستقلَّ سيارتَه وانطلقَ بها، كانت الشوارعُ تعجُّ بالضجيجِ والزحامِ ، وتبادُلِ السبابِ بين بعضِ سائقي السياراتِ وأحدهم ضَيّقَ على الآخرِ فتسببَ في اتلافِ واجهةَ سيارته وأحدث تلفياتٍ بها، فجأةً ظهرَ في ذهنِه صورتُها لا يعلمُ لماذا في هذا الوقتِ بالذاتِ؟ خفقَ قلبُه لوهلةٍ وكأن عبيرَها فاحَ في أنفه إلى أن جاءه صوتُ ضابطِ المرورِ يعلو بصيحتِه:

_"أنتَ كسرتَ الإشارةَ ، هاتِ الرُخصَ".

لم يُعرْه اهتمامًا فقط ناولَه الأوراقَ المطلوبةَ شيَّعهُ بنظرةٍ وانطلقَ في طريقِه. بعد نصفِ ساعةٍ تُعدُّ هي زمنَ الطريقِ، وصلَ إلى المديريةِ

وترجّلَ من السيارةِ يعتدلُ في هندامِه، ويعلو بساعتِه يُحدّقها تعلنُ الحاديةَ عشرَ صباحًا. الجو حارٌ جدًا أغسطس لازالَ حارًا لن يَكُفَّ عن تشبُثِهِ بطقسِ الصيفِ، دخلَ من البوابةِ. العساكرُ والمخبرون متناثرون وهناك بعضُ الرُتبِ العسكريّةِ ذهابًا وإيابًا ويؤدون لبعضِهم التحيةَ العسكريّةَ التقليديّةَ. عيناهُ تدورُ في محجرَيهما تقدمَ في خطواتِه إلى أنْ وصلَ إلى أحدِهم الماثلِ أمامَ أحدِ الغرفِ المثبتُ عليها لافتةَ "مديرُ الأمنِ" اقتربَ من العسكري هامسًا : _"من فضلِك عاوز أقابل الباشا".

_"أقوله مين حضرتك؟".

_"اتفضل اديه الكارت بتاعي هو في انتظاري".

مدَّ العسكري يده ساحبًا الكارتَ وطرقَ البابَ ودخلَ يخبرُ من بالداخلِ بحضورِ صاحبِ الكارتِ، ثم خرجَ وأشارَ له أن يتفضلَ، دلفَ في هدوءٍ تعلو وجهَهُ ابتسامةٌ وبعضُ الجديّةِ ارتسمتْ على ملامحِه، صافحَ مديرَ الأمنِ الذي رحَّبَ به وأشار له بالجلوسِ فاتكأ ينصتُ لحديثِه :

_" شوف يا دكتور نحن أمام قضية محيرة، اتفضل ده ملف القضية حضرتك تقدر تقرأه على مهلك وياريت تقابل المتهم علشان تقدر تفيد النيابة بدوافع القتل، المتهم اعترف بالجريمة فعليًا، ولكن متحفظ على الأسباب والنيابة لازم تعرف الدوافع".

سحبَ الملفَ ولفتَ انتباهَه اسم القضيةِ الذي يعلوه " ذبحَ حبيبتَه" عقدَ حاجبَيه من الدهشةِ وأشارَ:

_"مش يمكن خاينة؟".

_"اقرأ التحقيقات وياريت توصل للدوافع ولو اتعاونت معانا هيكون في قضايا كتير هنحتاجك فيها".

ابتسمَ وتهلّلَت أساريرُه على استحياءٍ:

_"أنا تحت أمركم يا افندم ، دا شرف ليا أكيد".

_"ربنا يوفقك يادكتور عاوز أسمع أخبار تفرحني. مع السلامة".

نهضَ من مجلسِه مصافحًا ذاك الأخيرَ وفي يدِه نسخةٌ من ملفِ القضيةِ توجّهَ إلى سيارته وانطلقَ بها وحَدّدَ وجهتَهُ وهي سجنُ الاستئنافِ عاقدًا العزمَ على مقابلةِ المتهمِ. وهناكَ عندما ترجّلَ من السيارةِ شعرَ لوهلةٍ برهبةٍ ورعدةٍ انتابتهُ فهذه المرةُ الأولى التي تطأُ قدَمَيهِ أرضَ سجنٍ والمرةُ الأولى له في مقابلةِ مجرمٍ وقاتلٍ، يجاهدُ في ترتيبِ أفكارِه، وصلَ وهناكَ وجدَ أنّ مأمورَ السجنِ على علمٍ بوصولِه بل كانوا على استعدادٍ وتأهبٍ لمقابلتِه و رُبّما هذا ما يسّرَ مهمتَه، ولكن ما وجدَه في تلك المقابلَةِ وما آلَ إليه الأمرُ لم يكن في حسبانِه، أنهى مهمتَه التي لم يحضرْها سواه هو والمتهمُ والتي كان لها أثرٌ سلبيٌ على نفسيتِه فما أن خرجَ من هذا المكانِ إلا وانطلقَ يبحثُ

عن شخصٍ واحدٍ ليبكيَ بين كفيهِ، يبثُّ ضعفَهُ بين شفتَيهِ، ويسكبُ ما في جُعبتِه من شقاءٍ في أحضانِها نعم إنها "هي".

أخرجَ الهاتفَ من جيبِ سروالِه واضعًا إياه على تابلوه السيارةِ نُصبَ عينيهِ وضغطَ رقمَها الذي حصلَ عليه المرةَ السابقةَ، كانتْ النتيجةُ أنّ الهاتفَ غيرُ متاحٍ كرّرَ المحاولةَ مرارًا، ولكنَ دون جدوى فانطلقَ بسيارتِه لا يعرفُ وجهتَه.

على صعيدٍ آخرٍ هناك في إحدى المناطقِ الراقيةِ شُيدتْ فيلا من الجرانيتِ، ويُزينُ أسوارَها الزهورُ البنفسجيّة، زوجانِ يعيشانِ تحتَ سقفِ بيتٍ واحدٍ، ولكن تُزاحمُهما الجدرانُ، تفصلُ بينَهما آلافُ الاختلافاتُ والخلافاتُ: رجل: قرويٌ به عاداتُه الشرقيّةُ التي تحجبُه عن مواكبةِ العصرِ بينما يغلفُه ستارُ الطبقةِ الراقيةِ رجلٌ دبلوماسيٌ يعشقُ العلمَ ويعشَقُ التدرجَ في القربِ من السلطةِ والنفوذِ يختزلُ الإصرارَ والعزيمةَ بين مسامِه ويجدُ من يكاتفُه ليقتربَ بسرعةِ الصاروخِ نحو ما يبغي تحقيقَه، لا يشغِلُ عقلَه سوى العلمُ والمناصبُ، وعكسُ قالبِه تشكّلتْ أنثى لا تعلمُ من حطامِ الدنيا سوى أنّها تزوجتْ مبكرًا ولم تلتحقْ بالتعليمْ كما هو الحالُ في بعضِ القرى من يتخوّفونَ من تعليمِ الفتياتِ ظنًا أنَّ التعليمَ يفسدُ عقولَهن والأفضلُ لهنَّ الجهلُ وفقطْ تعَلُّمُ مهامِ الطبخِ والشئونِ المنزليّةِ. هو ابن خالَتِها وهي ابنةُ خالتِه القرويّةِ التي انتقتها له أمُّهُ من بين بناتِ العائلةِ لتأكُّدِها أنّ تلكَ الفتاةِ هي الخامُ التي تبحثُ عنها

كلُّ أمٍّ لابنها ترافقُه فقط في الحفلاتِ العائليةِ البعيدةِ عن الطبقةِ الراقيةِ والبعيدةِ عن الأعينِ فلا أحدَ يعرفُ زوجةَ السيدِ عضوِ البرلمانِ سوى أنَّها من الفُضلياتِ.

ومع نهارِ يومٍ جديدٍ خلفَ جدرانِ السرايا تُشرقُ شمسٌ لا تنيرُ سوى المنافذَ ولا تتخللُ القلوبَ الصلبةَ المحصنةَ ضدَّ الضوءِ، وقفَ أمامَ فراشِه المُسجَّى عليه سيادةُ العضوِ نائبُ البرلمانِ، طرقتْ الباب بقبضةِ يدِها توقظُه، ولكن هيهات لم يَفُقْ إلى أنْ استغاثَ رنينُ هاتفِه سريعًا ما أفاق حدَّقَ في الهاتفِ. أعلى الشاشةِ مسجلٌ رقمُ المتصلِ وهو أحدُ أبناءِ دائرتِه الذين كان لهم الفضلُ في إلحاقِهِ بالمجلسِ فما عليه إلا أن أفاقَ واعتدل في مجلسِه يجيبُ، ضغطَ ردًا:

_"يا أهلًا يا أهلًا بالراجلِ الكُمّل اللي يغيب يغيب ويطل علينا زي البدر".

على الطرفِ الآخرِ:

_"مش وقت مراحب دلوقتي يا سيادة النائب تعالى حالًا في مصيبة في الكفر ولازم تيجي".

بدهشةٍ ورجفةٍ ارتسمتْ على ملامحِه:

_"في إيه يا حاج عمران؟ ما تتكلم يا راجل وقعت قلبي".

_"الواد فتوح ابن سَتيتة الهبلة ولع في محصول الحاج إسماعيل والدنيا مقلوبة هنا".

_"ما تتقلب وإحنا مالنا إن شاء الله تولع".

_" يا بيه أنت بتقول إيه دا في دايرتك، وبعدين الواد ده بيقول أن الأرض دي أرضك من الباطن ولو الحكومة جات تبقى وقعة مطينه ولا أنت ناسي أنت زارع فيها أي".

بارتباكٍ يحدِّقُ في زوجتِه الماثلةِ بالقربِ من الفراشِ:

_" طب بس بس خلاص أنا جايلك أما أشوف المصايب اللي بتتحدّف علينا دي".

أغلقَ الهاتفَ وظلتْ عيناه عالقةً في نظراتِ زوجتِه المرتديةُ ثوبًا أملسًا على طرازٍ ريفيٍ تملؤه الورودُ الكبيرةُ فلم يُعرْها انتباهًا، كل ما أثار حفيظتَه أنْ تعلمَ ابتسامُ ماذا يفعلُ زوجُها ذو المناصبِ القياديّةِ، والعلميّةِ التي لم تكن تحلمُ أن تتزوجَ مثلَه، ولكنَّها خالفتْ ما توقعَه منها منْ استسلامٍ؛ جذبتهُ من جلبابِه عازمةً أن تختلقَ المشكلاتِ زاعمةً ألا تدعَه لحالِ سبيلِه دونَ أنْ تأخذَ نصيبَها، تحدِّقُه مكشرةً عن أنيابها:

_"ألا هو وبعدين معاك يا راجل، أنت متجوزني ولا متجوز المجلس؟".

يعنفُها بلهجتِه الريفيةِ :

_"جرى إيه يا مرا؟ أنتِ عوزاني حداكي في الفرشة ماقومش؟ إيه مابتشبعيش؟".

وجدتْ أنّ لا هناك فائدةً من عتابِه فدفعته وكأنّها نفضت يدَيها عنه، وذهبت إلى غرفتِها تبثُّ لوعتَها بين الوسائدِ، تبكي شبقَها المفرطَ بلا جرعةِ ماءٍ ترويها. يمضي الزوجُ إلى المجلسِ يهمُ في لهفةٍ وكأنَّه على موعدٍ لمقابلةِ عشيقتِه، اعتدلَ في هيئتِه متخذًا جميعَ الأوراقِ اللازمةِ لمكتبِه، بعدما انتهى من استعدادِه قادتهُ قدماهُ إلى غرفتِها وقفَ أمامَ بابِها وتسّمرَ. أدارَ مقبضَ البابِ، ولكنّه لم يخطُ خطوةً داخلَها فاجأهُ رنينُ جوالِه وكأنّه تذكارٌ لأولوياتِه، ولم تكنْ هي ضمنَ تلك الأولوياتِ".

الفصلُ الثاني عشرَ

"لا أدري ما إن خمدتْ النيرانُ بقلبي، أم أنّي اعتدتُ الحريقَ..!"

عندما تُقدمُ على الشرِ فإنّك ستجدُ ألفَ طريقٍ وألفَ دربٍ لمعاونتِك على فعلِ ذلكَ، وحدُه الخيرُ الذي لا رفيقَ له سوى المخلصُ والخَيِرُ كيتيمٍ بلا أهلٍ، كلقيطٍ بلا مأوى، مجهولُ الهويةِ. في العيادةِ والتوقيتُ صيفيٌ لازالَ الطقسُ يميلُ إلى السخونةِ، ولكن إذا قُورنَ بقلبٍ يحترقُ شرًا لا ينطفئُ قد تجدَ الطقسَ لطيفًا، كم من حريقٍ يمكنُ إطفاؤه عدا حريقُ الحقدِ ينطفئُ بعد تدميرِ كلّ ما حولَه. رناتٌ متتاليَةٌ على هاتفِ العيادةِ والساعةُ لم تتعدَّ الواحدةَ ظهرًا لم يصلْ المساعدُ بعدُ، حتمًا العملُ في العيادةِ يبدأُ من الرابعةِ و إلى المساءِ، ظلَّ الهاتفُ يستغيثُ دونَ مجيبٍ مما أثار غضبِها فألقت الهاتفَ بطول ذراعِها بعيدًا وقفت أمامَ المرآةِ تحدّقُ في نفسِها، خصلاتُ شعرِها مبعثرَةٌ تتمايلُ يمينًا وشمالًا متأملةً، جسدُها ومفاتنُها، تتحسسُ ملمسَها يشبهُ المرمَرَ تتلفتُ يمينًا ويسارًا تتأملُ جسدَها الممشوقَ ونهدَيها النافرَين في إعجابٍ وتحدثُ نفسَها:

_"مش حرام الجمال ده؟ استنى عليا يا عبد الفضيل لو مكنتش أجننك، كان إيه خلاني أسمع كلام أمي واسيبك".

راحتْ تهتزُّ في دلالٍ أمامَ المرآةِ وتشردُ بذهنِها إلى أنْ جاءها صوتُ رضيعِها يُفيقُها مما هي فيه، اتجهت نحوه وهي غاضبةٌ:

_"أمّا أنت يا كيمو (الطفل) تعالى آكلك واوديك عند تيتة".

واتجهت نحوه أرضعتهُ وبدّلت ثيابَها، ومرَّ بعضُ الوقتِ وعادت بالاتصالِ في تمامِ كل ساعةٍ محاولةً مهاتفةَ العيادةِ إلى أنْ جاءها الردُ أخيرًا، فعلمتْ من الهاتفِ موعدُ العملِ هناك وتصنَّعتْ أنّها مريضةٌ وتوَدُّ الحجزَ لدى الطبيبَ وأخذتْ موعدَ الخامسةَ والنصفِ لمقابلتِه. انهت المكالمةَ وأغلقتْ الهاتفَ ووقفتْ أمامَ المرآةِ وضعتْ بعضَ المساحيقِ الرقيقةِ، كحّلتْ عينها البُنيّةَ فازدادت اتساعًا وعانقَ شفتَيها اللونُ الأحمَرُ بَدتْ كحوريّةٍ. حملتْ رضيعَها وجشَّأته واتجهت إلى البابِ مغادرةً، ولكن وجدت هناكَ من يحاولُ فتحَ البابِ هناكَ صوتُ مفتاحٍ ارتعدَت، وتسمَّرت، وهمَّت أنْ تختبئَ، ولكنْ لم يسعفْها الوقتُ اخترقَ صوتُه أذنَها بدا على وجهِه الإرهاقُ وحينَ رآها أثارت غضبَه فبادرَها بالسؤالِ:

_"لابسة ومتشيكة كده ورايحة على فين؟".

تلجْلجَت في الكلامِ قفزتْ الأحرفُ جميعها من حلقِها:

_" أنا... أنا كـ... كـ.. كنت رايحة لماما".

_"ماما؟ وبالنسبة لرجلِ الكنبة اللي أنتِ متجوزاه؟ ملهوش كلمة؟ مش تستأذني؟ ولا هي وكالة من غير بواب؟".

ابتلعَت ريقَها فاقتربَت منه متمسّحةً فيه كهرةٍ طالبةً السماحَ :

_"يا حبيبي متقولش كده دا أنت سيد الرجالة كلها هوا أنا استجرأ؟ أنا بس عرفت أن أمي عيّانة ومعرفش معادك قولت أخطف رجلي أروح بسرعة وأرجع".

اقتربت منهُ أكثرَ وربتَت على عنقِه وطبعَت على وجنَتِه بعضَ القبلاتِ التمثيليّة إلى أنْ هَدأَ وسمحَ لها بالخروجِ مشترطًا عليها ألا تُكرّرَ مثلَ هذه المواقفِ كي لا تثيرَ غضبَه، فأومأتْ له موافقةً وانصرفت كهرّةٍ فُتح لها بابَ البيتِ بعدَ عُزلةٍ مَريرةٍ.

هناك بعيدًا بين موجاتِ البحرِ، والشمسُ بأشعّتِها تطلُ مواظبةً على موعدِها كلَّ ظهيرَةٍ فتُشعِرُ الحاضرينَ بالأُلفةِ والأنسِ، راحوا يختبئون من أشعّتِها التي تُلهبُ أجسادَهم اصطُفت الشماسي، والكراسي على حدودِ الشاطئ. امرأةٌ مسنةٌ ذات الخمسينَ مرتديةً جونلةً ورديةً وبنطالًا أسودًا ضيقًا وولدُها الذي أوشكَ على الثلاثينِ يفترشُ الرملَ ويحاولُ غضَّ بصرِه عنها وها هي شقيقتُه وزوجُها وطفلَيها يلهونَ ويلعبونَ ويصيحُ طفلُها الأصغرُ مناديًا خالَه يحثُّهُ على اللعبِ، ولكنَّ الأخيرَ غيرُ مستجيبٍ إلى أن قذفَهُ الطفلُ بالكرةِ في رأسهِ فانتبهَ وبادرَ زوجُها :

_" يلا نلعب كلنا ، أنتم جايين تقعدوا ولا أي رأيك يا سامح؟".

نظر سامح إلى (نجوى) أمه:

_"اسأل نجوى تحب أي؟".

اختلسَ النظرَ إليها على استحياءٍ يراقبُ ردودَ أفعالِها فنهضَت بالموافقةِ وهبّتْ واقفةً تحثُّهم على اللعبِ لتُجدِّدَ نشاطَها وقفوا جميعًا وراحوا يتراقصون بالكرةِ يُمرّرونها لبعضِهم البعضُ وأخذتْ نجوى تقفزُ خلفَ الكرةِ متناسيةً سنَّها، الفرحةُ عمّتْ صدورَهم طارَ سامحُ على الكرةِ ليصدَها كان أُختيرَ حارسًا للمرمى. تجري شقيقتُه وزوجُها وخلفَهم نجوى لتهجمَ على الكرةِ، ولكن لم تضعْ عاملَ السنِ واللياقةِ في الحسبانِ ،تعرقَلَت في حَجَرٍ صلبٍ وبالخطأِ ركلتْهُ بدلًا عن الكرةِ لتهويَ تلتوي من الألمِ إلتمَّ الشاطئُ بمن عليه من المُصطافينَ يحملونَها طلبَ ابنها عربةَ الإسعافِ قدمُها تنزفُ بلا توقُّفِ. الحَجَرُ كان بهِ سيخًا خفيًّا شقَّ قدمَها، الجميعُ في هرولةٍ من أمرهِ وأمَّا الأخيرةُ فتضاعَفَ صُراخُها مع النزيفِ. وأخيرًا جاءت الإسعافُ لنقلِها إلى أقربِ مستشفى.

هناك بعيدًا دارَت تلك المشاجَرةُ بين رشوانٍ ومَن معه. إنَّه رجلٌ في الخمسين ذو لحيةٍ رماديّةٍ؛ حيث احتدَّ النقاشُ بينَهما حينَما طَالَبَهُ الأخيرُ بنسبةٍ في حقِّه:

_"يا أستاذ رشوان أنا واحد غيري كان طلب مش أقل من تلت الميراث، وبعد كل الضمانات اللي بوفرها الميراث كله هيبقى في ايدك، ومش هتلاقي حد يعمل كل اللي بعمله معاك أنا..."

قاطَعَهُ الأولُ مهددًا إيَّاهُ:

_"بقولك إيه أنت واخد لحد دلوقتي حقك وزيادة، فمتعملهمش عليا وافتكر كويس أنك لو فكرت تفتح بؤك بنص كلمة أنت أول واحد ينضر مفيش محامي محترم بيزور شهادة أمراض عقلية ونفسية ولا بيشهد زور في صف وكيله ولا بيزور أختام ومبايعة".

ارتبك المحامي حينَئذٍ معلّلًا فعلَتَه أنَّهُ فعلَ ذلك من أجلِ معاونَةِ وكيلِه لاكتسابِ القضيّةِ، ولكن أوضحَ له رشوانُ سببَ فعلتِه هي المالُ. أنَّه مَن باعَ ضميرَه من أجلِ المالِ فانطلقَ في وجهِهِ كالقذيفةِ :

_"وهلْ أفعالك دي لحاجة غير المال يا سيد رشوان؟ كون أنك تاخد حق غير حقك وتنعت واحد بالتخريف للطعن في قواه العقلية عشان إيه؟ مش علشان المال بردو ولا أنا غلطان".

ابتسمَ الأخيرُ بسخريةٍ مربتًا فوقَ كتفِه:

_"يا عزيزي كُلُّنا لصوصٌ".

وأطلقَ ضحكةً مدوّيةً وأخرجَ من جيبِهِ دفترَ الشيكاتِ مُخطًا فيه مبلغَ مائةَ ألفِ جنيهٍ مصريّ ووَقَّعَهُ لحاملِه ونفحَه إيَّاه على أن يكونَ عربونًا.

_"أدي جزء من حسابك يا متر، ومش عاوز أسمع صوتك ولا أشوفك غير وأنت بتقولي مبروك ازاي بقا معرفش".

أومأ المحامي بالموافقةِ وأخذَ الشيكَ قبلَه ووضعَه في جيبِه وانصرفَ، وانطلقَ في طريقِه يضعُ خطَّتَه التي لا أحدَ يعلمُ كيفَ ومتى ستسيرُ لتوقعَ بالفأرِ المسكينِ في المصيدةِ؟".

الفصلُ الثالثُ عشرُ

استكانَ الليلُ كطفلٍ عاشقٍ للظلمةِ أغلقَ جفنَيه عن كلِّ لهوٍ، عن كلِّ فكرٍ، عن كلِّ عقلٍ لم يكفَّ عن التفكيرِ. النعاسُ داعبَ أعينَ الخلقِ، ولكنْ وحدُها العينُ الحاقدَةُ لا تغفلُ ولا تتوبُ عن الشرِّ. مرّ اليومُ من دونِ تحقيقِ مُرادَها فجلسَتْ تندبُ حظَّها، ولكن تطفئُ فكرًا لتُشعلَ غيرَه من مواقدَ لا تنطفئُ تراجعُ ذكرى الحدثِ حين وصلتْ في تمامِ السابعةِ وقطعَت كشفًا مستعجلًا وبقيَت هناكَ عيناها معلقةٌ ببابِ العيادةِ، شاردةٌ كحيوانٍ مفترسٍ على حذرٍ مكثَ يتوجَّسُ مرورَ فريستِه متأهبًا للحظةِ الانقضاضِ، ولكن ما حدثَ لم تتوقعْهُ. مرَّتْ ساعةٌ بتمامِها وهي كلُّ لحظةٍ تهندمُ ثيابَها وتُخرجُ مرآتَها تحدقُ فيها، وتمرّرُ أصابعَها بين خصلاتِ شعرِها، ثم تدسُ المرآةَ في حقيبتِها، نهضَت وذهبتْ وجاءت تنظرُ في ساعتِها، ومرّتْ ساعةٌ أخرى وهي تستشيطُ إلى أنْ قطعَ أفكارَها رنينُ الهاتفِ الموضوعِ أعلى مكتبِ المساعدِ.

_"ألو! نعم يا دكتور زي ما حضرتك عارف واحد بس، أيوه كشف واحد".

على الجانبِ الآخرِ:

_"أعدْ له الكشفَ واعتذرْ، وأخبرْه بموعدِ الغدِ، لن أتمكنَ من الحضورِ اليوم".

_"أوامرك. عُلم يا افندم سأعيدُ لها ثمنَ الكشفِ، وهو كذلك. مع السلامةِ".

أغلقَ الهاتفَ ومدَّ يدَه في دُرجِ المكتبِ وأخرجَ ثمنَ الكشفِ ونفحَها إيّاهُ، حدّقتهُ باستغرابٍ مصطنعٍ فأشارَ لها

_"كما سمعتي حضرتك الدكتور اعتذرَ عن الحضورِ، غدًا إن شاء الله بإمكانك أن تشرفينا في نفسِ الموعدِ".

نهضَتْ وجذبَت النقودَ في حركةٍ عصبيّةٍ ومضَتْ وهي تفركُ أصابعَها، تدبُّ بنعلَيها راحلةً تجرُّ ذيلَ أفكارِها وشباكِها التي لم يمهلْها الحظُ من نصبِها. وها هي جالسةٌ تستعيدُ كلَّ ذلك وهي تضعُ جميعَ الاحتمالاتِ إلى أن توصَّلَتْ إلى فكرةٍ ما تنضحُ خبثًا. تسحَّبتْ على أطرافِ أصابعَها واتجهَتْ نحو غرفةِ النومِ تأكدَتْ أن زوجَها غفلَ في سباتٍ فأوصَدَتْ البابَ في هدوءٍ؛ ثم انطلقَتْ تقفزُ فوقَ الأريكةِ جاذبةً نحوها الهاتفَ المنزليّ طلبَتْ رقمًا وانتظرَت يجيبُ :

_"ألو سمية ألا تعرفي صوتي أيتها الملعونة؟! ألم نكن عِشرةَ أربعِ سنواتٍ قادمةً وراجعةً".

ضحكَتْ بخلاعةٍ؛ ثم تذكّرتْ زوجَها النائمَ فكتمَت ثغرَها بكَفِّ يدِها، جاءَ صوتُ الأخرى على الهاتفِ:

_" لا أعادها الله. أيامٌ لم أنلْ بعدَ الثانويةِ كما كانوا يخبروننا أنّه بانتهاءِ الثانويةِ ودخولِ الجامعةِ لأفضلِ حدثٍ تاريخي على الإطلاقِ".

_"تذكرتيني! لم؟ ألم يكفيكِ هوسُ عصامٍ وشلته بكِ؟".

_"لا أذكرُ شيئًا سوى أنّني تزوجتُ شخصًا آخرًا غيرَ من أحببتُ، ولعلكِ نِلتِ ما أرضى فؤادَك يا ريتال".

لم تنطقْ جاءت الكلماتُ صائبةً نحو قلبِها الممزقُ لم تجِب، لكنَّها بكتْ في همهمةٍ مكتومةٍ جعلَتْ مَن تحدثُها تظنُّ أنّ الاتصالَ انقطعَ:

_"ألو! ءأنتِ بخيرٍ؟".

_"وما الذي ذكّركِ بي الآنَ؟ وفي هذه الساعةِ المتأخرةِ من الليلِ؟".

أفاقتْ ريتالُ من أفكارِها وابتلعَت ريقَها:

_"اسمعي: أعلمُ أنَّ الوقتَ غيرُ مناسبٍ وأنّني قصرتُ معكِ منذُ زواجِك ،ولكن...".

صمتَت والأخرى تنصتُ في انتباهٍ تتوقعُ أمرًا جللًا واستطردت الأخيرةُ:

_"سأحتاجُ منكِ خدمةً وسأمنحُك كلُّ ما تطلبينَ من المالِ والهدايا أعلمُ أنَّ المالَ له دلالةٌ عندَكِ أليسَ كذلكَ".

ضحكتا الاثنتان وكأن كليهما تقطنُ بعقلِ الأخرى وتعرفُ ما يدورُ في خُلدِها:

_"أكملي ولكِ مني ما تبتغينَهَ".

_"أيًا كان؟".

سمية:

_" نعم أيًا كان".

_"إذن أعطني أذنك وانصتي لكلِ حرفٍ أخبرُكِ بهِ".

ظلا قرابةِ النصفِ ساعةٍ يتهامسان على الهاتفِ ويدبران أمرًا لا يعلمُهُ سواهما وانتهى الاتصالُ وأغلقَتْ وذهبَت إلى فراشِها على أملِ أن يأتيَ الغدُ ومعَه ما ينالُ رضاها. وأمَّا عن سُميةَ جلسَتْ تخاطبُ نفسَها ماذا وراءَ تلك المرأةِ الناعمةِ كالأفعى؟

هناك على صعيدٍ آخرٍ ممددًا على أريكةٍ أمامَه كومةٌ من أعقابِ السجائرِ التي انتحرَت بين شفتَيه، يجولُ برأسِه أفكارٌ شتّى أشعَلَ المسجلَ واستمعَ لبعضِ تسجيلاتِ المرضى وفجأةً شعرُ بصداعٍ يعتصرُ رأسَهُ فأغلقَ المسجلَ وأمسكَ بالهاتفِ فجاءه اتصالٌ من رقمٍ غريبٍ ضغطَ ردًا:

_"ألو الو من المتصلُ؟".

لم يُجِبْ أحدٌ وانقطعَ الاتصالُ، كانت هذه المكالمةُ بمثابةِ نقطةٍ أخرى في سجلِ أفكارِه لتزدادَ سوءًا وشتاتًا، جاهدَ أنْ يغلقَ عينَيهِ ولكن دون جدوى، يفترسُ سيجارتَه في نهمٍ وكأنَّهُ ينالُ منها ما لم ينلهُ من النومِ يتفقّدُ أركانَ البيتِ، تأتيهِ أفكارُ عتابٍ يشعرُ بالتقصيرِ حيالَ مرضاه، يشعرُ بالوخزِ لما هو مقبلٌ عليه، مما ينوي رشوانُ زوجُ أخته. وفجأةً لمعَتْ في عينِه تلكَ العاهرةُ التي أطفأتْ وهجَ أفكارِه بين منحنيات جسدِها الغضِّ، ولكنْ كيفَ لها أنْ تعودَ بعدما نهرَها نهضَ من مرقدِه وأخمدَ سيجارتَه؛ ثم بدلَ ثيابَه ونزلَ من المنزلِ وانطلقَ بسيارته. جاءَ في ذهنِه أنْ يجولَ في تلك الأزِقَّةِ الخاويةِ الضيقةِ التي جمعتهُ بها من قبلِ، ولكنَّ الشوارعَ خاليةٌ، عيناه تبحثُ عنها ورُبما عن شبيهاتِها. نبضاتِ قلبِه تعلو وتهبطُ كالأرجوحةِ، ركنَ سيارتَه وقدْ شعرَ باليأسِ يجتاحُ صدرَه فطرقُ بقبضتِه فوقَ الدركسيونِ في خيبةِ أملٍ وانكفى يريحُ رأسَه فوقَه، ذرفَ دمعتين، وسؤالُ حالِه:

_" إلى أين أذهبُ؟ إلى من؟ كان أملُه أن يجدَها، أن يتنفّسَ حنانَها، أن تربتَ يمناها على قلبِه المتعَبُ، أن يرتشفَ نهدَهَا، فيكفَّ عن البكاءِ كرضيعٍ هدأ روعُه لمجردِ أن التقمَ ثديَ أمِه، لكنَّ جميعَ محاولاتِه باءت بالفشلِ نظرَ في مرآةِ السيارةِ ليعودَ من حيثُ جاء فلمحَ بطرفِ عينِهِ زاويةً للصلاةِ، جفَفَ دمعاتِه وعزمَ أن يتجهَ نحوها. صَفَّ سيارتَه جانبًا وخلعَ حذاءه يطوفُ بعينَيه في روعةِ

المكانِ وكان الوقتُ يعلنُ صلاةَ الفجرِ فذهبَ وتوضّأ واستعاذَ باللهِ، مَثلَ أمامَ المولى راكعًا يبثُّ له ضيقَه من الحياةِ من وحدتِه ولعنةَ الظروفِ راجيًا العفوَ والسماحَ، انتهى من صلاتِه وافترشَ الأرضَ ممددًا فغفلَ. لقد استراحَ قلبُه تاركًا حملَه على اللهِ الذي لا يردُّ سائلًا.

وجاء يومٌ جديدٌ لم يكن يعلمُ أنّه غلبَه النعاسُ في الزاويةِ وحينَ أفاقَ انصرفَ بسيارتِه عائدًا للمنزلِ وهناك تفاجأ بأمرٍ لم يكنْ يتوقعُه كادَ يذهبُ بعقلِهِ ولم ينوِ الذهابَ لعيادتِه إلى أنْ جاءه اتصالٌ من رقمٍ يبدو أنّه من الخارجِ فأجابَ في توتّرٍ:

_"ألو ألو أنا دكتور عبدُ الفضيلِ من المتصلُ؟".

_"كيفَ حالُك يا تلميذي النجيبُ؟ وطالبي الحبيبُ؟".

عقدَ حاجبَيه متمتمًا سرًا(ليس هذا وقتُك بالمرةِ):

_"مرحبًا أستاذي الذي أثقل كاهلي".

أجابَه بالضحكاتِ:

_"هل هذا ردُّ المعروفِ يا دكتور عبد الفضيل؟ أهذا جزائي معك؟".

اعتدلَ في الحديثِ، ثم بادرَ بالضحكِ المصطنعِ:

_"العفو يا دكتور سلاموني إنّها مجردُ دعابةٍ ولعلّكَ تعودُ إلى موطنِك الحبيبِ ومرضاك في انتظارِك و...".

قاطعَهُ كعادتِهِ:

_"أعتذرُ لك يا عبدَ الفضيلِ الأشغالُ التي سافرتُ من أجلِها لم تنقضِ بعدُ، ربما أعودُ على نهايةِ العامِ وقد يطولُ الأمرُ ولا أعودُ إلا العامَ القادمَ، اعتبرْ العيادَةَ عيادتَك بمرضاها".

_" ولكن حضرتك لم يكن هذا اتفاقُنا كان على سبيلِ عدةِ أشهرٍ فقط والمرضى حالتُهم غيرُ سويةٍ وتحتاجُ المزيدَ من الدراسةِ وأنا لديَّ أشغالي أيضًا".

_"امممممم عبد الفضيل قد تمَّ نقلُ ملكيةَ العيادةِ باسمك وعملُ عقدٍ بذلك. الأوراقُ في درجِ المكتبِ لا تُخيّبْ ظني بك يا عزيزي أتمنى لك التوفيقَ".

أنهى الاتصالَ في عُجالةٍ كعادتِه دون أنْ يمهلَهُ الردَّ

الفصلُ الرابعُ عشرَ

قد نُصابُ بمتلازمةِ الاستشعارِ عن بعدٍ، حالةٌ من التعَرُّقِ، وخفقٌ مستمرٌ، ورطوبةٌ في البدنِ والأطرافِ وكأنَّها حمىً ولكنَّها بمثابةِ بوصلةِ الجسمِ التي تنذرُهُ بالخطرِ. عيناهُ الزائغةٌ وقلبُهُ المتلاحقُ الخفقَ لم يُمهلاهُ مساحةً لمعرفةِ ما وراءَ هذا السلاموني بكلِّ ما افتعلَه هذا الوقتُ بالتحديدِ إلا أنّه قد بعثَ في نفسِه مخاوفَ المسؤوليةِ تجاهَ مرضاه ذوي الأعراضِ المتباينةِ، أخذَ نفسًا عميقًا، نهضَ واتجهَ نحو الشرفةِ يسترقُ منها أنفاسَهُ الحرةُ بلا قيدٍ، إلا أنّ هناك من ألحَّ في اتصالِه ليزيدَ على كاهلِه من متاعبَ، وما كان إلا المساعدُ، لم يجبْ فعاودَ الاتصالَ إلى أن استسلمَ وأجابَ:

_" نعم؟ هل هناك كارثةٌ تستدعي كلَّ هذا الرنينَ؟ لولا أنّك رجلٌ في سنِ والدي لكنتُ أسمعتُك ألوانًا من السبابِ".

على الطرفِ الآخر:

_" احم! آسف يا دكتور، ولكن المرضى يشتكون وهناك جلساتٌ مؤخَرَةٌ لابدَّ من حضورك وكذلك هناك كشفان".

_" يكفي يا هذا سآتي، ولكن لا أريدُ أيَّ نوعٍ من أنواعِ الثرثرةِ أسمعتَ؟".

_"فقطْ التقريرُ بالحالاتِ؟".

_" بدونِ أن تتفوّهَ أمفهومّ؟".

أغلقَ الهاتفَ وهو يتمتمُ باللعناتِ (من أي مصيبةٍ أتاني به الدكتور السلاموني؟ رجلٌ ستينيٌّ في مثل سني يهزقه شابٌّ من سن أبنائي؟ لعنةُ اللهِ على من أرسلَه لي، ولعنةُ اللهِ على الحاجةِ للمالِ).

راحَ ينظفُ الأرضيةَ، وينظمُ كراسي الاستقبالِ، ويلمّعُ مكتبَ الدكتورِ ورشَّ معطرَ الجو واجتهدَ لذاك الأخيرِ كلَّ ما يحتاجُه؛ كي لا يتركَ مجالًا للنقاشِ بينهما. وفي غضونِ ساعةٍ كانت تعلنُ الخامسةَ. بدأ المرضى يخطونَ العيادةَ وعلى رأسِهم اثنتانُ أفعالِهم وملابسُهم تبدوا مُريبةً إحداهما بشعرٍ أشقَرٍ فاتحٍ وتضعُ مساحيقَ وعدساتٍ زرقاءَ وفستانٌ سواريه لا يصلحُ لعيادةِ طبيبٍ، والأخرى ترتدي نقابًا والاثنتانِ تهامسان والتي ترتدي النقابَ:

_"نعم! لا تقلقي كلُّ شيءٍ جاهزٍ كما اتفقنا".

وفي غضونِ الساعةِ كانت العيادةُ تكتظُ من المرضى منهم حالةُ سيدةٍ كانت تتشحُ بإيشاربٍ أسودٍ ونظارةٍ شمسيةٍ تخفي ملامحَها نفحَتْ المساعدَ حقَ كشفٍ مستعجلٍ بالإضافةِ إلى ورقةٍ فئةُ المائةِ جنيهٍ وغمزَتهِ في كفِّه وهي تسلمُها له :

_"لا أريدُ أن انتظرَ وهذا عربونُ محبةٍ كي تُسعفُني بالدخولِ أولًا".

وحين لمحَتْها إحدى السيدتين غريبتي المنظرِ نهضَت مسرعةً، وأخرجَت ورقةً بمائتينِ ودسَّتْها في كفِّ المساعدِ:

_"ونحنُ لن ننتظرَ البرنسيسةَ. الذوقُ والأصولُ تقول أننا الأولُ. ولو على النقودِ فالخيرُ وفيرٌ".

كانت تلك صاحبةُ العدساتِ الزرقاءَ دسَّت المالَ في كفِّ الرجلِ ونظراتُها تحملُ الوعيدَ فما كان من المرأةِ صاحبةِ الإيشاربِ؛ حيث أنَّها شعرت بالحرجِ ولفتُ الأنظارِ لنا من الحضورِ فعادَت إلى أدراجِها، وتكدَّس العددُ والدكتور لم يصلْ بعدُ فقامت السيدةُ المنتقبةُ وطرقَت بقبضتِها المكتبَ ففُزِعَ الجالسُ خلفَه وابتلعَ ريقَه ونظرَ لها يحثُّها على الالتزامِ بهدئها:

_"اجلسي يا سيدتي الطبيبُ على وصولٍ".

_" لن أجلسَ اتصَلْ بالطبيبِ وأخبرهُ أنَّ حياةَ المرضى أمانةٌ في رقبتِهِ وليست لعبةً". صوتُها العالي اخترقَ مسامعَ ذلك المارُّ الدالفُ من البابِ أثارَتْ انتباهَه، ولكنَّه انطلقَ إلى مكتبِه دونَ أيّ كلمةٍ ارتبَكَ المساعدُ عندئذٍ ونهضَ كالطلقةِ دخلَ من البابِ بعدَ طرقةٍ طفيفةٍ مطأطأً رأسَه جاهدَ ليفتحَ شفتيه:

_"أصلُ كان".

رفعَ عينيهِ موجهًا له نظرةً مُخرسةً إيّاه وحركةً وضعَ الأصبعَ على الفمِ لحثّهِ على عدمِ التفوُّهِ، أشارَ له أنْ ينصرفَ قائلًا:

_"لا أريدُ سماعَ أنفاسِك، فقط القهوةَ سريعًا والكُشفاتِ بالترتيب".

أجابَه موافقًا وانصرفَ. وبعد دقائقٍ دخلَ الكشفُ الأولُ وكانَ عبارةً عن إحدى السيدتين وهي ذات الشعرِ الأشقرِ، طرقت ثم دخلت برفقٍ وأغلَقت البابَ وجلسَت واضعةً قدمًا فوقَ الأخرى كاشفةً عن ساقيها الغضةِ وأخرجَت سيجارةً طالبةً من المائلِ أمامَها إشعالَها فلم ينتبهْ عبدُ الفضيلِ إلى أن كررَت طلبَها :

_"ممكن تولعلي؟".

محدثًا نفسه :

_"هذا الصوتُ ليس بغريبٍ عني، ولكن من؟".

قامت واتجهَت نحوه وأحنَت جزعَها نحوه وهو يرمقُها من فوقِ كرسيهِ وممسكٌ بولاعةٍ يحدقُ في عينيها و ترتعشُ شفتاهُ :

_"أنتِ تعرفيني؟".

أجابته بضحكةٍ خليعةٍ : أهل نسيتَني؟ أم أنني أتقنتُ فنَّ التنكُّرِ؟ أتذكر جائزتي في مسرحِ الكلية؟ كنت لا تعترفُ بتمثيلي، ما رأيُك الآنَ؟ يا فضّولَة؟

قفزَ من موضعِه ، دفعَها عنه في انفعالٍ، بدا عليه التوترُ : ماذا جاءَ بكِ إلى هنا؟ أيُّ نوعٍ من المخلوقاتِ أنتِ؟ ألستِ زوجةً؟ ألستِ على ذمةِ رجلٍ آخرٍ!

اقتربَت منه احتضنَته بذراعَيها من ظهرِه ودفنَت وجهَها فيه: ولكنّي أحبك أنتَ

: أخرجي من هنا وإلا طلبتُ لكِ الشرطةَ.

لازالت متواريةً خلفَ ظهرِه ، فَكّتْ أزرارَ الفستانِ فسقطَ جزءٌ من الصدرِ، ونزعته من الأكتافِ ، وبعثرَتْ شعرَها بكفّيها ، استدارَ ليطردَها ففاجأته بصرخةٍ أثارت الزعر بين المرضى ، فتجمهروا أمامَ غرفةِ الكشفِ وعلى رأسِهم المنتقبةُ التي أخرجَت هاتفَها المحمولَ وقامت بتشغيل البثِّ المباشرِ ، ليجدَ عبدُ الفضيلِ نفسه على الهواءِ ، صرخ ِجاهدًا أن يأخذَ الهاتفَ أو يضعَ أمامَ الكاميرا ما يمنعُها من التصويرِ ، ولكن هيهاتَ ،كان بكاءُ الكاذبةِ ومنظرُها المثيرُ للشفقةِ حديثَ الهمزِ واللمزِ بين المرضى ، اللذين قذفوه بالسبابِ واللعناتِ، وعلى رأسِهم هذا المساعدُ الأفّاكُ مرددًا : أستغفرُ اللهَ العظيمَ ، أستغفرُ اللهَ العظيمَ ، لو علمَ الدكتورُ السلاموني أنّ هذه الكبائرَ تُفتَعلُ في عيادتِه الطاهرةِ لكان أطلقَ عليك الرصاصَ قبلَ أنْ تخطوَ خطوةً واحدةً داخلَها

: اخرجوا من هنا ، اخرجِي عني يا أفعةً يا ملعونةً ،

جذبَها من ذراعِها وقذفَ بها نحو السلمِ ، فسقطت المرأةُ ذات الشعرِ الأشقرِ، أما المنتقبةُ ففرَّت لا أحدَ يعرفُ لها سبيلًا ، وأما المرضى فهرولَ الجميعُ في فزعٍ، وأما عن عبدِ الفضيلِ ، فطردَ المساعدَ طالبًا منه أن يتركَ مفاتيحَ العيادةِ والذي لم يستسلمْ بسهولةٍ من دون أن يُلقي عليه باللومِ واللعناتِ، أغلقُ العيادةَ وجلسَ ينتحبُ ولأول مرةٍ في حياتِه ، دافنًا رأسَهُ بين كفَيه ، وفي تلك الأثناءِ كان هاتفُه لا يكفُّ عن الرنينِ ، من معارفَ وأصدقاءَ وأقاربَ شاهدوا المقطعَ الذي يظهرُ فيه غاضبًا وبجوارِه مريضةٌ تنتحبُ وترددُ :هذا ليسَ بطبيبٍ إنَّهُ ذئبٌ بشريٌّ غيرُ آدميٌّ، لقد انقضَّ عليَّ نازعًا عني ثيابي ، وتحرشَّ بي ، يخالطُ صوتَها بعضُ المرضى ،. يظهرُ خلفَهم المساعدُ ضاربًا كفًا بكفِ " أستغفرُ اللهَ العظيمَ" أغلقَ عبدُ الفضيلِ الهاتفَ، شؤكا ينبتُ في رأسِه ، لا يصدقُ ما حدثَ، الهاتفُ رنينه يعلو ويعلو، لا يكفُّ ، سحبَه من جوارِه وألقى به بكلِّ قوتِه أرضًا مدمرًا إيّاه، يصرخُ داخليًّا، نهضَ والأحداثُ تُلقي به في جمرِ النارِ، لا يستطعُ صبرًا ، أغلقَ العيادةَ واتجهَ إلى الشارعِ، استقلَّ سيارتَه، وتاهَ في زحامِ عقلِه لايدري أينَ الفرارُ.

الفصلُ الخامسُ عشرَ

وقد يمتحنُ اللهُ إيمانَنا ببعضِ التجاربِ كما اختبرَ أيوبَ وابتلاه لعلّ في الابتلاءِ تقربٌ إلى اللهِ ولعلّه نجاةً من شرٍّ لا نعلمُه. إنّها الحكمةُ الربانيةُ التي لا يعلمُها سواه عز وجل ملاءاتٌ بيضاءُ، جدرانٌ بيضاءُ تحتضنُ ذلك المُسجّى لا حولَ له ولا قوةً تتصلُ بجسده الأسلاكُ والأجهزةُ يكلّلُ رأسَه الشاشُ لتغرقَ ملامحُه، مُخدّرٌ أثرُ العلاجِ الممزوجِ في المحلولِ المنبثقِ في وريدِه، غرفةٌ خاليةٌ من الحياةِ عدا قدمين رشيقتين خطَت نحوَه قاست النبضَ ودوّنت ملاحظاتِها بجوارِها الممرضَةُ، بادرت بسؤالِها : أهل أفاقَ؟

فهزّت رأسَها الأخيرةُ نفيًا مما جعلَ تلك الطبيبةَ الشابةَ تتجهُ نحو الأجهزةِ المتصلةِ بإشاراتِ المخِ، والقلبِ، متأففةً : الحادثةُ أدّتْ لإصابتِه بارتجاجٍ في المخِ.

هل من الضروري إبلاغُ الشرطةِ يادكتورة؟

صمتت برهةً : الأمرُ لا يستدعي انتظارًا ألم تخبريهم بالأمسِ عندما وصلَت الحالةُ ؟.

طأطأت رأسَها وتلجلجت : كنتُ أريدُ الانتظارَ إلى أنْ يفيقَ كي يتمكنوا من سؤالِه.

غضبتْ الماثلةُ أمامَها تحدقُها وهي رافعةٌ حاجبَها بتهكمٍ :ومَن أنتِ حتى تقرري؟ اذهبي وأخبري الشرطة.

وعندما مضت خطوتين استوقفتها : أها واعلمي أن لديكي يومين خصم جزاء تأخرك في تنفيذ الأمر.

فانطلقت من أمامِها كالقذيفةِ وهي تتمتمُ ببعضِ الاعتراضاتِ والحسبنَةِ، ولكنَّ الطيبةَ اليافعةَ لم تهتمْ وعادت نحو المريضِ وبدأت تتكشفُ ملامحُ وجهَه التي حاوطَها حقلُ القطنِ إنّه هو عبدُ الفضيلِ، بدأ يستفيقُ فصدرت منه أنّاتُ ألمٍ وكأنّ كفَّها لامسَ تلك الكدماتِ التي في رأسِه. فتحَ عينيه رويدًا يتلفتُ بهما في المكانِ وفي رأسِه ألفُ سؤالٍ وألفُ آه، ولكن حين وقعت على ابتسامتِها ألجمَتهُ فبادرت هي : ستكونُ على ما يرامُ ولكن لا تحاولْ الحركةَ وإلا ستهتزَّ الأسلاكُ المتصلةُ بالأجهزةِ.

: مَن أنتِ ؟ وأين أنا؟ أنا!؟ من أنا؟.

نزعَ الأسلاكَ التي تبثُّ له المحاليلَ وجاهدَ أنْ ينهضَ، ولكن داهمَهُ دوارٌ شديدٌ ليسقطَ أرضًا متاوّهًا فما كان منها إلا أنَّها بضغطةِ زرٍ من يمينِها أتى اثنان مسرعَين إليها ليحملاه سويًا إلى فراشِه فمالت عليه وحقنته بعقارٍ مهدئٍ.

على حينٍ آخرٍ في مكانٍ بعيد طلَّ القمرُ منبثقًا تواريه السحبُ، ولكنه لا ييأسُ يدورُ يحلقُ في الفضاءِ يرسلَ نورَه رغمَ عجزِه فهو على يقينٍ أنَّ ومضاتِه تبعثُ البهجةَ في النفوسِ المظلمةِ طلت برأسِها عبرَ النافذةِ ممسكةً بجوالِها رقمُ أخيها الصغير فجاءها الردُ الإلكتروني : الرقمُ مغلقٌ وغيرُ متاحٍ، امرأةٌ في العقدِ الثالثِ وهي الأقربُ له رغمَ أنها لم تفعلْ له المزيدَ لم تحتضنْه في كنفِها بعد وفاةِ الأمِ ولم تقفْ في وجهِ رشوانَ زوجَ إيناسِ حينما رفعَ دعوةً تشككُ في قوى أخيها العقلية وطعنه بالتزويرِ في وصيّةِ والدهم التي نصّتْ على أنْ تؤولَ الشقة الكُبرى لنجلِه وتكونَ خارجَ الحسبان للإرثِ الشرعيّ والذي يتمثّلُ في عمارةٍ وأرضٍ تُقدّرُ بفدانين، ولكن لمَ يلتمُّ الجمعُ حول الشقةِ المذكورَة؟ ما هي قيمتُها ليفعلَ رشوانُ كلَّ هذا ربما سنعلمُ ذلك لاحقًا أما تلك المتلحفةُ بشالٍ أسودٍ ذات شامةٍ في صدغِها، مستديرةُ الوجهِ وكأنَّها نسخةً نسائيةً من عبدِ الفضيلِ إنّها _نورٌ_ متزوجةٌ من محسنٍ. موظفٌ يعملُ في إحدى شركاتِ التأمين ولديها ابنٌ وحيدٌ. ليسوا هي وزوجَها من أصحابِ النظرةِ الدونيةِ في الحياةِ. على عكسِ شقيقتها التي تلهثُ وزوجُها خلفَ المالِ، رغمَ أنّهم لم يشأ القدرُ أن ينجبوا، محسنُ ميّزَهُ طابعُه الديني، إنه لا يتركُ صلاةً إلا أقامَها وفرضًا إلا وأدّاه، لا يأخذُ عمولاتٍ أو رشاوى كما يفعلُ بعضُ زملائه، مقولتُه الشهيرةُ : ما جاء من الباطلِ ذهبَ في الباطلِ وما جُمعَ سريعًا صُرفَ أسرعُ. صوتُ المفتاحِ في مزلاجِ البابِ. وإذ به دخلَ وأغلقَ البابَ خلفَه لتحدثَ رعدةً في تلك التي تطلُ من الشرفةِ

بعينيها الحائرةِ وكأنَّ شيئًا قد ضاعَ منها لا تعلمُ ما هو، شاردةٌ بذهنها بعيدًا وكأنها تقتصُ حدثًا ما بقيَ في ذكرياتها لا يعلمُه سواها. هناك منزلٌ صغيرٌ تملؤه الضحكاتُ، في نهايةِ الغرفةِ جلسَ طفلٌ منكبًا على لعبته يصفقُ فرحًا؛ خطَت نحوَه شقيقتُه التي تكبرُه بعامٍ فقط تقبّلُه على وجنتَيه محيّيةً إيّاه على براعتِه في اللعبةِ، لم يتعدَّ الخمسَ سنواتٍ يبتسمُ لها بعينيهِ البنيةِ اللامعةِ كفراشاتٍ تحلّقُ في السماءِ بينما هناك في المطبخِ وقفت الأمُ تعدُ الطعام بجوارِها ابنتُها الكبرى دونَ الخمسةَ عشرَ سنةٍ بمثابةِ ساعدِها الأيمنِ تجولُ في المنزلِ تعطي أشقاءها الأوامرَ في سماعِ الكلامِ وترتيبِ الألعابِ والنهوضِ، في غرفةِ الطعامِ كلُّ شيءٍ يسيرُ كما يحلو لها وفجأةً يقطعون خيطَ ذكرياتِها بمقصِّ اللحظةِ. تجدُ يدًا تسقطُ على كتفِها لتصدُرَ عنها شهقةٌ تلتفتُ خلفَها فتجدُه قد عادَ من عملِه للتوِ، فتأخذُ نفسًا عميقًا وتزفرُه في ارتياحٍ، تقتربُ منه احتضنَته من الخلفِ تستشعرُ فيه الأبَ المفقودَ والأسرةَ التي أصبحت ذكرياتٍ ترسمُها في الصباحِ لتُأكّد عن يقينٍ أنّها لم تعدْ تلك الطفلةُ، يسألُها زوجُها عن طفلِهم فتشيرُ له تجاهَ الغرفةِ بأنَّه قد غفى منذُ وقتٍ وتصمتُ بوجهٍ متجهمٍ يدعو للتساؤلِ، فيقتربُ منها ويقبّلُ جبينَها ويلمحُ مسحةَ الحزنِ في عينيها؛ ليبادرَ بسؤالها ماذا بكِ؟ ولمَ تلك النظرةُ الحزينةُ التي أراها في عينيكِ؟ تصمتُ ثم تختصرُ الإجابةَ في

كلمةٍ واحدةٍ بل هو اسمٍ واحدٍ "عبدُ الفضيلِ" فتلتقي بعينيه وكأنّ الإجابةَ تناصفَت في أذهانِهم،

: لم تصلْ للكِ أخبارُهُ بعدُ؟.

تجيبُه بإيماءةِ رفضٍ يستطردُ قائلًا أتعلمين ماذا فعل زوجُ شقيقتِك رشوانُ؟ لقد اتصل بي اليومَ ليخبرَني بدعوته القضائية ضد أخيكِ عبدِ الفضيلِ متهمًا إيّاهُ بالاحتيالِ والتزويرِ في وصيةِ والدكِ المرحومِ، وكذلك يدعونني للمشاركةِ في تلك الجريمةِ هو لم يخبرني مباشرةً، ولكنّه أشارَ لي إنّه في الأيامِ القادمةِ سيحتاجُ لشهادتي، ولكن أيُّ شهادةٌ يطلبُها؟ فهل شهادتي بالحق أم شهادةِ الزور؟

لم تجبْ ولكنَّها انهمكت في البكاءِ تخبئُ وجهَها بين كفيها وقلبُها يعتصرُ على ما بقي لها من صندوقِ الذكرياتِ الأسريةِ، الذي كلُّ ما يربطُها به اليوم هو مجردُ نسبٍ عائليّ مدونٍ في بطاقتِها الشخصيةِ جفَفَ دمعَها في حبٍ، ربتَ على كتفِها وطلبَ منها أن تطمئنَ إنَّه لن يتركَ الحقَ يحيدُ عن مجراه، لن يدعَ في الظلمِ يدًا فوق جبينه، وأخبرها أن عبد الفضيل لا يمثلُ له شقيقَ زوجتِه بينما هو شقيقُه أيضًا بحكمِ العشرةِ والصداقةِ التي بينهم وأنّه حتمًا سيذهبِ إليه ويخبرُه بكل شيءٍ وسيقفُ في صفّه فابتسمت وهدّأت من روعِها.

فقط أشارت له عينَ هاتفِه، الآنَ في هذه اللحظةِ والتَّوّ ضغطَها افتقدت صوتَ أخيها، طلبت من زوجِها أنْ تتحدثَ معه تعلمُ أنه لن

يردَ لها طلبًا، وكذلك لم تجرؤ أن تهاتفَه بعد تلك المدة التي استمرت أكثرَ من بضعةِ أشهرٍ منذ وفاةِ أبيهم وكان هذا طلبًا من شقيقتِها الكبرى إيناس ألا تهاتفَه إلا كلّ شهرٍ وأنّه مجبرٌ على الرضوخِ لطلباتِه.

إنّ زوجَها مثقلٌ بمتاعٍ، بعملِه الذي قد عادَ منه للتوّ واللحظةِ إلا أنّه همَّ لتلبيةِ طلبِها وما ضربَ الاتصالَ برقمِ عبدِ الفضيل ليجيبَه الردُ الإلكترونيُّ أنّ الهاتفَ مغلقٌ أو غيرُ متاحٍ. عاود الاتصالَ عدةَ مراتٍ كانت عينها تراقبني في لهفةٍ وشوقٍ وحزنٍ ممزوجين، لم ييأس فقط أخبرَها أنّه ربما فصلَ هاتفَه وأنّه سيعاودُ الاتصالَ به في الصباحِ الباكرِ ليطمئنَ عليه وقد يصلَ إليه إن لزمَ الأمرُ إلى سكنِه أو ربما عيادتِه ويدعوه إلى الغداءِ هكذا مضت الليلةُ، هي هادئةٌ مطمئنةٌ في انتظارِ أن يأتيَ الغدُ أن يحملَ لها أخبارًا تسعدُها وتزينُ قلبها كفراشةٍ محملةٍ بالأمنياتِ السعيدةِ.

الفصلُ السادسُ عشرَ

مرّت أيامُ الشتاءِ القاسيةِ قسوةَ الزمانِ ، وقلوبِ أحبائه ، ذابَ الجليدُ وذابت مشكلاتُ الراقدِ على فراشِه سلمَ امرَه لبارئه ، في تلك الأثناء ذهبت المدَّعيةُ زورًا لمقاضاتِه ، لم تتعظْ مما حدثَ لها إثرَ دفعه لها عبرَ الدرجِ في ذاك اليومِ المشؤوم ، من كسورٍ في ذراعِها الأيسرِ إذ سقطت منحدرةً من فوق السُلمِ ، وحين علم زوجُها بما فعلته من دونِ علمِه طرحَها ضربًا رغم كسورِها ، وألقى عليها يمينَ الطلاقِ، كل هذا وذاك ولم ترتجعَ عمّا تنويه ، وهناك على صعيدٍ آخرٍ أُغلقت العيادةُ ، فقد جاهدَ هذا الشابُ الخجولُ أن يتصلَ مرارًا برقمِ العيادةِ المرفقِ بالكارت ، ولكن قد أغلقها الممرضُ واتصلَ بالدكتورِ السلاموني مبلّغًا إياه ما حدثَ، الذي لم يعلّقْ نهائيًا وهذا ما أدهشَ الممرضَ الخبيثَ، ولكن تفاجأ من قولِ الأخيرِ : اعتبر أنك في إجازةٍ مفتوحةٍ لحينِ قرارٍ آخر ولا تتصلْ بي، ولكن لن أوصيك تذهبَ مرتين كل أسبوعٍ لتنظيفِ العيادةُ واتركْ رقمك على بابِ العيادةِ وجواره نصًا إفادتُه " مغلقٌ لظروفٍ طارئةٍ"

وأمّا عنه فقد حظيَ باهتمامٍ من الطبيبةِ التابعةِ لحالتِه والتي لم تكفَّ من الحديثِ معه ، وها هي مكثت تتأمله وهو يتناول غداءه : ألن تشاركيني غدائي!؟

ابتسمت ولم تجبْ، فقرّر العزمَ أن يتقاسما الطعام، طبقُ من اللحمِ المشوي وقطعتا خبزٍ ،وطبقُ سلطة ، أزاحت بيدها الأطباقَ في لطفٍ : سبقتُك منذُ ساعةٍ ، اطمئنْ يا مريضي العزيز

ابتسمَ وشردَ لبرهةٍ مرددًا : مريضي العزيز! مؤكدٌ أنّ هناك اسمًا يليقُ بي أفضلُ من تلك الكلماتِ.

شعرت بحرجٍ وحاولت أن تتخطى الموقفَ فسألته عن مذاقِ الطعامِ: إنَّه شهيٌّ، تعلمي أخبرُكِ شيئًا؟ كأنَّ فمي أيضًا تناسي الأطعمة وحدثَ له فقدانُ المذاقِ وربما فقدانُ الحياةِ.

بدا عليها الامتعاضُ لصوبِ كلماتِه التي أصابتها في مقتلٍ؛ فمنذُ وفاةِ والدتِها لم تهنأ بالعيشِ في جوّ الأسرةِ المتناغمِ، لقد انفرطَ عقدُ الأسرةِ بغيابِ كنف الأم وحنانها ، سافر شقيقها الأصغر إلى إنجلترا لاستكمالِ دراستِه، وأما عن والدها فهو طبيبٌ أيضًا ، إنّه السبب الرئيسيُّ في بثِّ روحَ الطبِّ بين عروقِها منذ نعومةِ أظفارها، بحكمِ أنّها الطفلُ الأول في الأسرة، لم يستطعْ فعلَ ذلك مع نجله الأصغرَ لقربِه من أمه بالأكثرِ، فقد هوى الموسيقى، لا تنسى المشادة التي دارت بين هذا الأخيرِ ووالدهم في اتخاذ قرارِ الاختيار إلى أيّ كليةٍ ينضمُ!

بصوتٍ أجشٍ: بما أن مجموعَكِ لم يصلْ للطبِ فعليك أن تلتحقَ بإحدى كلياتِ القمة ، هناك صيدلةٌ أو هندسةٌ أو .

ابتسمَ في برودٍ : وما هي القمةُ؟ أيُ قمةٍ يا أبي نصلُ اليها ؟ أليسَ قائدُ الأوركسترا على القمة؟ أليسَ عازفُ الفلوتِ والأورجِ والبيانو والقانون على نفسِ القمة؟ القمةُ يا أبي هي راحةُ صاحبِها وليست راحةُ الآخرين

: إنك تستهزئُ بي ياوقح؟ أنتَ تقللُ من فكري؟

وهنا تدخلت ببشاشةِ ابتسامَتِها: لم يقصدْ يا حبيبي ، ابننا مثالُ التربيةِ ولكن هذا الجيلُ له فكرٌ يختلفُ عن جيلنا.

يسخرُ من رأيِ زوجتِه ويحولُ بعينيه نحو الفتى: ولماذا لم تفعلْ مثله شقيقتُه؟ أليست من نفس جيله؟

ربتت الزوجةُ على كتفِ زوجِها لتهدئته : أصابعُك ليست مثل بعضِها ، وحمدًا لله أنّ هناك في العائلة من أخذَ ميراثه من رزانةِ عقلك.

عاد لرشده.

الفصلُ السابعُ عشرَ

فتحَ جفنيه للتوّ ليرى تلك الجالسةَ، حدقها في اندهاشٍ لسانُ حاله:

_"من أنتِ يا امرأة".

لم تجبه وظلت تراقبُ عينيه العسليةَ في غرامٍ وكأنّها تمتلئُ بهما، تتفرسُ في ملامحَه، جاهدَ كي يفيقَ من غفلتِه، اعتصرَ ذهنَه كي يتذكرَها وإذا بها تقتربُ منه لتفاجأه بقبلةٍ، دفعَها عنه بكلتَي يديه وأطاحَ بقبلتها وكأنّه يتطهرُ من شفتيها وأخيرًا تفوهت:

_"إن كنتَ لا تعي من أنا فأنا أعلمُ بفقدانِك الذاكرةَ، ولكن هل تنسى أول كأسٍ ارتشفتْ شفتاك لخمرِ الهوى هي أنا، أنسيتَ عند المساءِ؟ فستاني الأحمرُ ودقةُ نعلي".

نهضَ من فراشِه وبدا عليه التوترُ جبينُه يتندى عرقًا، تلعثمَت شفتاه وابتعد نحو الشرفةِ ولازالتْ هي جالسةٌ على الحافةِ:

_"لا أذكرُكِ يا امرأة و ربما لا أريدُ أنْ أذكرُك كل ما هنالك أريدُكِ أنْ تخبريني مَن أنا؟ وكيف عرفتي أنني هنا؟ وما طبيعةُ علاقتي التي تربطُني بمثلك؟ هل...".

لم يكملْ تسمرّت شفتاه حينَ لمحَ دورانَ مقبضِ البابِ فأشارَ لها أنْ تصمتَ الآن، في تلك اللحظةِ خطَتْ قدماها الرقيقتان الغرفةَ وزيّنت

وجهَها ابتسامةٌ بينما عيناها تأرجحَت بين كليهما، وخطَت نحو الكشفِ المعلقِ بسريرِه سحبَتْهُ تتفحصُه :

_" لقد تحسنَّتْ حالتُك، تتقدّمُ بسرعةٍ نحو الشفاءِ يبدو أنّه أقتربَ موعدُ خروجِك من هنا ومؤكدٌ ستنسانا".

بادلها الابتسامَ متجاهلًا تلك الغريبةَ الجالسةَ:

_"لن أنسى ملائكةَ الرحمةِ يا دكتورة، نقطةُ الأبيضِ في حياتي على الرغمِ أنّ حياتي برمَّتها صارَتْ بيضاءَ من كلِّ البيانات".

وتعالَت ضحكاتُهما، فتنحنحَت المرأةُ مهرولةً في الخروجِ، لملمَتْ عباءة الشغفِ منصرفةً إلى حيث جاءت فشيّعَها بعينيه وودَّ سؤالَها ولكنه تلجلجَ في حضرَةِ (سيلينا) الطبيبةِ خوفًا أنْ تلاحظَ لا يعلمُ لماذا تحفظُه، استوقفَه هذا الشعورُ لوهلةٍ ثم تلاشى إثرَ حديثِها

_" ألا زلتَ لا تتذكرُ حياتك الماضيةَ؟".

شردَ بعيدًا وزفرَ زفرةً مُرَّةً وهزَّ رأسَه نافيًا:

_"أتعلمي بعضُ الأحيانِ يخالطُني الخوفُ أنْ أعلمَ حقيقةَ من أنا؟".

_" إنَّه لأمرٌ غريبٌ أيُّ شخصٍ في مثلِ حالتِك لتمنّى اليومَ الذي يلتقي فيه بأسرتِه وأحبابه ربما لك زوجةٌ أو خطيبةٌ".

فنظرَ في كفيه وابتسمَ:

_" أظنُ لو كذلك لكنتُ وجدتُ دبلةً أو خاتمَ الخطبةِ".

_"لكن دعني أسألُك عنْ تلك الزائرةِ؟ من تكونُ؟ حتمًا تعرفُ هويتَك أليس كذلك؟".

_"لا أعلمُ من هي لم تخبرني شيئًا أعتقدُ لو تعرفني لأخبرتني أليس كذلك؟".

_"ألم تسألها؟".

حدقّها بعينَيه وابتسمَ في إعجابٍ فتوارت عيناها خجِلةً وهمَّت بالانصرافِ ثم ألقت في وجهِه عبارةً:

_"سآمرُ الأمنَ قبل السماحِ للزائرين بأخذِ كافةِ البيانات عنهم قبل الدخول ربما احتجنا إليهم يومًا ما".

حيّاها بابتسامةٍ احترامًا لذكائها، و أغلقت البابَ خلفَها وتركتْه في سلسلةٍ من الأفكارِ تعانقُ رأسَه في حلقةٍ لا تفرغُ .

لم تقعْ عيناه الهزيلةُ على جرائدِ اليومِ لمحَها بطرفِ عينيه ولكنّه تغافلَها بينما هناك عنوانٌ يناديه و يتصدرُ أغلبَ الصحفِ" اختفاءُ طبيبٍ نفسيٍّ في ظروفٍ غامضةٍ بعد اتهامِه بقضيتين: تحرّشُه بإحدى مرضاه، واستيلاؤه على ميراثِ شقيقتَيه".

راحَ يزيلُ الستائرَ لتبعثَ النورَ في الغرفةِ كي يستشعرَ الدفءَ في روحِه الباهتةِ. طرقاتٌ على البابِ خرجَ صوتُه وسمحَ للماثلِ بالدخولِ كانت الممرضةُ ومعها أدواتُ تعقيمِ الغرفةِ، واستأذنَتهُ في التغييرِ على جرحِ رأسِه لازالتْ عليه ضمادةٌ تخفي بعضَ الغرزِ، جلسَ أسفلَ يديها ووضعت المطهراتِ على الطاولَة الصغيرة التي بين الكرسي والفراشِ وتنحني نصفَ انحناءةٍ لتنهي عملَها سريعًا ، في حين تأوهَ وهو يلامسُ تلك الضمادةَ التي جذبتها تلفلفُها فوق الجرحِ ابتسمت :

_" اقتربْتَ من الشفاءِ".

ثم استدرَجت في قولِها:

_"انتهيتَ من قراءةِ الصحفِ؟".

_"لا ليس بعد ولكنّي أشعرُ بصداعٍ في رأسي وسيءُ المزاجِ، اتركها ربما اطلعتُ عليها بعد قليلٍ".

أنهت عملَها وخرجَت من الغرفةِ ، بينما زفرَ الأخيرُ زفرةَ ألمٍ ووحدةُ الأفكارِ تلاطمُه كموجٍ يصطدمُ بالصخورِ فيعانقُه الألمُ بالأكثرِ وحتى يكسرَ وحدتَه سحبَ الجرائدَ من الطاولة المجاورةِ وبدأ يتفحصُها كان يطالعُ الصورَ، تلفتُ انتباهَه وفي الأخير ألتفتَ إلى صورةٍ تشبهُه فراحت عيناه تغرقُ بين عناوينِ وتفاصيلِ الخبرِ، شعرَ

بقبضةٍ تحيطُ بعنقهِ، شهقَ واسرعَت يدُه بسحبِ زجاجةِ الماء ليبتلعَ ما قرأ هل هو؟ هذا الطبيبُ الذي تبحثُ عنه الشرطةُ؟ أمعقولٌ قد تحرشَ بمريضةٍ عنده؟ وسرقَ ميراثَ شقيقتيه؟ أسرعَ وضغطَ على زرِّ استدعاءِ الممرضةِ التي وصلت على الفورِ دافعةً البابِ لاستمرارِ ضغطِه على زرِّ المساعدةِ أدهشَها ما رأتْ عقبَ أصابتِه بحالةٍ من الذعرِ والغضبِ ظلَّ يحطمُ الأشياءَ من حولِه ويطيحُ بالأدويةِ صرخَ بأعلى صوتِه:

_"هذا أنا؟ أنا مجرمٌ؟ مختلٌ؟ سارقُ حقوقٍ؟؟ أهذه حقيقتي التي أجهلُها؟ كان يجهشُ بالبكاءِ بشكلٍ يعتصرُ القلبَ، جاهدَت الأخيرةُ في تهدئتِه ولكنه دفعَها بعيدًا عنه فأصيبت في رأسِها، صرخَت وراحت تنادي الطبيبةَ التابعةَ للحالةِ سيلينا! جرت مسرعةً لتجدَه يحاولُ قطعَ شرايينه ، كان معها اثنان من الأمنِ قد طلبتهم بمجردِ أن عرفَت من الممرضةِ ما فعلَه، أمسكاه وأوثقاه في الفراشِ، حتى تمكنَت من حقنِه بمهدئٍ لحين اتخاذِ إجراءٍ في حالتِه التي ساءت بعدما قاربَ على الشفاءِ، ولكنّ عينَها جاءت على الصحفِ التي بجوارِه ، أطلقت شهقةً، جُعلت حائرةٌ تائهةٌ ولكن جاءتها فكرةٌ لتعرفَ أينَ الحقيقةَ، لذلك قرَّرَت أن تضعَ خطةً لتعرفَ كيفَ تبدأ ومن أينَ؟ ربما تصلُ يومًا للحقيقةِ، قلبُها يخبرُها أنّه مظلومٌ، ولكنّ عقلَها أخبرَها مذكّرًا " لا تجعلْ مظاهرَهم تخدعَك، وإن خدعَتك مرةً فلا تنخدعْ في الثانية" .

الفصلُ الثامنُ عشرَ

أظلمتْ السماءُ بعد عناءِ الشمسِ في الظهورِ، ولكن أصرَّ السحابُ أنْ يواريها اليومَ؛ لتُظلمَ السماءُ ويعانقَ الضبابُ كلَّ الأشياءِ وبالأكثرِ القلوبَ، حتى أصابَها السوادُ، لم يعدْ عضوًا حيًّا بل قطعَ حجارةٍ فعلُها الوحيدُ ضخُّ الدمِ، وضخُّ الكراهيةِ، والحقدِ. طرقَ بكفِّهِ على المكتبِ الجالسُ خلفَه:

_"لا يهمني اختفاؤه من ظهورِه، ما يهم هو حقي المتفقُ عليه فقط الميراثُ لكما من دون معاناةٍ".

الماثلُ أمامَه ينفثُ سيجارتَه في غضبٍ ثم بادرَ بابتسامةٍ مصطنعةٍ:

_" يا متر لن نختلفَ، ولكن ليست القضيةُ في اختفائه، ما يهمني أنْ يتمَ القبضُ عليه حتى يرتاحَ قلبي وضميري".

قهقهةَ المحامي بضحكاتِه عاليًا ساخرًا:

_"هل حقًا لديك ضميرٌ مثلُنا يا رشوان؟".

اعتدلَ الأخيرُ في جِلستِه وتوقّفَ بعينيه غاضبًا:

_"ماذا؟ ماذا تقصدُ يا هذا؟ أتقنعني أنّ أمثالَك ينادون بيقظةِ الضمائرِ؟ إن امتلكتَها مِن الأساسِ؟".

ابتلعَ ريقَه في غَضةٍ، وحدّقَ عاقدًا حاجبيه:

_"ما علينا الأفضلُ أنْ نتحدثَ في التفاصيلِ ونتركَ عراكَ الأطفالِ هذا، ما رأيُك؟".

أومأ رشوان برأسِه موافقًا:

_"أتعلمُ يا متر فقط لاستراحةِ قلبي لك أشعرُ أنّنا سنُكوّنُ صداقةً وثيقةً في القادمِ أتمنى ذلك".

همهمَ المحامي سرًا (تمنَّ براحتك يا صعلوكَ، ولكنْ عني ذلك لا يشرفُني)

_"هل تقولُ شيئًا يا متر؟".

_"لا لا أقولُ، يجبُ أن نسرعَ في إعلامِ الوراثةِ حتى يتسَّنى لنا توزيعُ التركةِ".

تهلَّلَ وجهُ رشوان:

_"يا للحظِ وكأنّك تقرأ أفكاري، أتعلمُ أخبرُك سرًا سوف أتزوجُ على زوجتي العاقرَ؛ سنواتٌ تحملتُها عصبيةٌ وكم تعايرُني بفقري، ولكنّي لن أخبرَها أنني أنوي الزواجَ مراعاةَ لشعورِها".

_"خيرٌ ما تفعل. مباركٌ مقدمًا ولا تنسى قبل مغادرتِك أن تتركَ لي بعضَ المالِ تحتَ الحسابِ، ولا تنسى أتعابَ الشهودِ وكذلك هناك قضيةٌ التحرشُ لابدَّ أنْ نضمَ صوتَ تلك المرأةِ إلى صوتنا".

_"ذكرتني من تلك السيدةِ؟ هل حقًا تحرشَّ بها؟ ولكني دومًا أرى عبدَ الفضيلِ رغمَ اختلافِنا أنّه على خُلقٍ، أم هو ممثلٌ مصطنعٌ مثلي؟".

أخذَ يقهقهُ عاليًا

_"لا يا سيدي أنتَ بارعٌ تستحقُ الجائزة الأولى وليس لك مثيلٌ".

_" أخبرني حقًا من تلك المرأة أودُّ معرفتَها لطالما كانت مصلحتنا واحدة".

_"لقد علمتُ قصتها وعنوانَها من التحقيقاتِ وهذا هو العنوانُ سأخطُّه لك، وهذا اسمها".

أخبره المحامي بكافةِ التفاصيلِ عن الحادثِ، ولكن لم يعلما كلاهما أنها نفسها التي كان يحبها عبدُ الفضيلِ في أيامِ الجامعةِ، وقد فضّلت عنه رجلًا أخرًا دفعَ مهرًا أكثر ليشتريها لم يعلما أنّها ضلعٌ هامٌ في مثلثٍ الغادرين اللذين ألقوا به في مصيرٍ وحده الله يعلمُه ولا سواه. أينَ عبدُ الفضيل؟ أينَ العقلِ القادرُ على استيعابِ كل هذا الكم من الإيذاءِ؟

وهناك في أحدِ البنايات الشاهقةِ الارتفاعِ مكثَ رجلٌ خمسينيٌّ ينفثُ السيجارَ البنيَّ شاردًا خلفَ نافذةِ غرفته بأحدِ الفنادقِ حتى رنَ هاتفه فأخذه وأجابَ:

_"حسنًا سوفَ أكونُ في استقبالِهم بعد ساعةٍ، أجلسهم في كازينو الأوتيل وكنْ جاهزًا معي، أعلمُ أنّهم سيدفعون مبلغًا جيدًا إذا أعجبَهم العرضُ كن حريصًا على ترجمةِ كلِّ حرفٍ يقولونه، وإذا وجدتَ مني ردًا غيرَ مناسبٍ لا تترجمه أسمعت؟".

على الطرف الآخر (مساعد دكتور السلاموني):

_"لا تقلقْ سيكونُ كلُّ شيءٍ كما تريدُ، ولكن رجاءً لا تنسى مساعدَك الأمين".

وتعالَت ضحكاتُهما واتفقا على الموعدِ وأغلقَ كلٌّ منهما بينما حدَّثَ نفسَه:

_"ما حالُك الآن يا صديقي؟ هل حقًا ما سمعتُه عنك؟ هل أستعينُ بك لأهربَ من الضرائبِ فتغلقَ لي أنت العيادةَ بالضبةِ والمفتاحِ؟ يا للعنةِ القدرِ".

نهضَ يعدلُ هندامَه أمامَ المرآةِ والأسئلةُ تخاطبُه ولا تمهلُهُ جوابًا عادَ الرنينُ يحثُّهُ على الانصرافِ أجابَ:

_"انتظرني أنا في طريقي إليك فقط دقائقَ أمهلني إياها، استعد أنت وأحضِرْ معكَ المسجلَ ".

_ "حسنًا لا تقلق يا دكتور كل الأمور على ما يرام".

قاعةُ استقبالٍ بها أثاثٌ قطيفةٌ فاخرٌ يحيطُ أركانه، أصصٌ نباتية تضفي البهجة للمكان، أريكةٌ وعدةُ مقاعد يتوسطها طاولة وضع عليها مفاتيح سيارة، وعلبة سجائر، ومنفضة دُفن بها أعقاب سجائرَ عدةٍ. جلس أحدهم ينفثُ سيجارته تعانق شواربه الشقراء ويلوح دخانها في الفضاء شرد بعينيه نحو التراس، بدا عليه العصبية واحمرّت وجنتاه في حين أشارَ له رجل آخرٌ يرتدي حُلةً كلاسيكية سوداء انحنى نحوه بنصف إيماءةٍ معتذرًا: _"نعتذرُ منك مسيو راشد! الدكتور في طريقه إلينا لا تقلق لقد طلبتُ القهوة بمجرد وصولها يكون قد حضرَ".

جاهد الأخير وابتسم حتى يضيف بعض اللطف، فبادله الضيفُ الابتسام وفي غضون ثواني مَثُلَ أمامهم دكتور السلاموني فنهض كلاهما مرحّباً به وتبادلا التحية وجلسا وثالثهما يحتسون القهوة، أشار المساعد يقدم كلًّا منهم للآخر:

_"دكتور سلاموني غنيٌ عن التعريف "دكتوراه في الصحة النفسية ومتخصصٌ في علاج الفصام الذهاني المتعدد والأحادي".

وأشارَ للضيف مقدمًا إياهُ:

_"سيادةُ الكولونيل راشد "مأمورُ سجن نورغرهافن" ويتَّبعُ أحدثَ الوسائل لتهذيب سلوكيات السجناء".

ابتسم الضيفُ مرحّبًا:

_"نأمل في التعاون المشترك بيننا ليكون ثمار ذلك اكتشافٌ جبارٌ". (نطقها بالهولندية)

فترجم المساعدُ كل حرفٍ كما أمره أستاذه فأجاب:

_"أودُّ أن ندخلَ في الموضوع ، فأنا لا أملكُ الوقت ولديَّ العديدُ من المؤتمرات".

أشار الدكتور للمساعدِ أن يشغل المسجلَ، ابتدأ الضيفُ في عرض طلبه وكان عنوانُهُ (كيفيةُ تهذيبِ سجينٍ)

ابتسم ثلاثتُهم وافتتح السلاموني الحديث:

_"أعلم أن السجونَ الهولندية أوشكت على الغلق تمامًا، وذلك من اتباعِكم لوسائلَ تساعد على إصلاحهم".

أومأ راشدُ برأسه مؤيدًا ما تطرق لأذنه:

_"أودُّ أن أرتقي بهم إنسانيًا كي يتمكنوا من مواكبةِ المجتمع حين ينهوا مدةَ العقوبة، فأغلبُ الجرائمِ قائمةٌ على معاناةِ صاحبِها نفسيًا وربما عقليًا".

حقًا فقد تطرقَ لأخطر معاناة يعانيها المجتمع. من منّا بلا أزمةٍ نفسية؟ قد يكبحُ جماحَها فيؤدبَها أو تفلتَ من بين أصابعه فتؤدبه هي، كم من جرمٍ أُرتكبَ تحت ضغطِ خللٍ نفسيٍ!

ظل راشد يفتخر بعبقرية قوانين الحكومة الهولندية التي تهتم بإصلاح السجناء وتهذيبهم نفسيًا بالأكثر من الانتقام منهم ومعاقبتهم، جلس السلاموني ينصت ويشردُ برأسه بعيدًا عن ذاك المكان، طمحَ لو صارت القوانينُ المصرية أكثرَ علاجًا، أكثر تهذيبًا، وليست أكثر صرامةً. لو أنَّ المذنبَ يُنظرُ لدوافعِه حين ارتكابِ جريمته وتُدرس، لو يصبحُ هناك مختصٌ نفسيٌ على وعيٍ كاملٍ ودرايةٍ نفسيةٍ بدراسةٍ مقننةٍ في كل مدرسةٍ وكل مصلحةٍ، لو أن يتم إدراجُ الكشفَ النفسي، واشتراطًا قبلَ عقدِ أي قرانٍ بين العروسين والكشفَ عليهما مسبقًا منعًا لحدوثِ خلافاتٍ تؤدي إلى جريمةٍ مستقبلًا. زفرَ السلاموني زفرةً قويةً وأفاقَ أخيرًا من شرودِه بمجردِ أن وكزَه مساعدُه بيمينِه كي يخبرَه ما رأيُه؟ فأجاب:

_"فيمَ؟".

أعاد المترجمُ كلماتِ راشدَ الأخيرةَ الماثلِ أمامهم:

_"أودُ أن تقومَ بتأليفِ كتابٍ يضمُّ جميعَ تجاربي بين السجونِ، وكمَّ محاولاتي في تعديل سلوكياتِ السجناء، بالإضافة إلى وضعِك لأحدثِ طرق العلاج النفسي ووسائله، وكيف يصلُ السجين من

خلالها لشخصٍ صالحٍ وقادرٍ أن يصبحَ على مستوى صحيٍّ ومفيدٍ لنفسه والمجتمع؟".

صمت الدكتور للحظاتٍ، ثم ابتسم وانتبهَ لشيءٍ:

_"وكم سيكون المقابل؟".

قهقهةَ الكولونيل:

_"لن نختلفَ يا سيدي، ولكن هناك شرطٌ أنك تكتب لي تعهدًا أنّك لن يحقَ لك إصدارُ هذا الكتابِ بأيّ دولةٍ غير هولندا، وكذلك لن يحقَ أن تبيعَه باسمِك".

تجهم وجهُ الأخيرِ واحتقنَ، ثم أومأ برأسِه وأشار إلى مساعدِه بالنهوضِ وأنهى جلسته بتلك الكلماتِ:

_"أمهلني يومين وسأجيبُك بالردِ".

ولكن الكولونيل أشارَ بأصبِعه رافضًا:

_"يومًا واحدًا يا سيدي فليس لدي وقتٌ للمفاوضاتِ".

تبادلا التحيةَ وانصرفَ كلٌ إلى وجهتِه. وهناك على صعيدٍ آخرٍ جلست منزويةً تبكي ممسكةً بالجرائدِ يتوسطُها خبرُ اختفائه، كلما عانقت أصابعُها صورتَه الرماديّةَ في الصحيفةِ انتحبت؛ لم يشغلها

نعتُ زوجِها لها بالجنونِ مثلَ أخيها، تكررَ ذلك المشهدُ ومعايرتُه التي لا تكفُّ:

_"ليتني ألقيت بكِ في مصحةٍ، يبدوا جميعُكم مرضى بالوراثةِ".

خرجت عن صمتِها وتوقفَ نحيبُها:

_"ألا يكفيكَ ما حدثَ؟ من تحت رأسِك ووسوستك لي يا وجهَ الغرابِ؟".

لم تكن شقيقةُ عبدِ الفضيلِ تحبُ زوجَها وتبقيه على عائلتها كما فعلت إيناسٌ مع رشوان، من سلبها حتى عقلَها وانتماءها لتلك العائلة، بينما سميرة ما كان يشغلُها دومًا هو أخوها لم تنسْ لعبَهم في عمر الصغر حيث يختبئ ويقولُ لها ابحثي عني يا سوما فتجيبه:

_"ولكنك تختبئ في أماكنَ لا تخطر لي على بالٍ".

ابتسم وهو ذو الأربعةِ عشرَ سنةٍ وكانت سميرةُ ذات العشرَ سنوات:

_"ابحثي عني وسوف تجديني".

وكانت تغمضُ عينيها وتظل مغمضةً وتبحثُ، تاركة روحَها ترفرفُ في الفضاءِ، طالقةً لحسِّها العنانَ فتجدَه مختبئًا أسفلَ الفراشِ وحينها تصرخُ عاليًا فرِحةً:

_"هاااااا وجدتك لن تفلتَ مني".

ضحكا كلاهما بل سقطا ضحكًا، وسقطت دمعتان على فراقها له. وتعود من ذكرياتها على هزهزة كتفيها من أصابعٍ غليظةٍ، صاحبُها غليظُ القلبِ والبصيرةِ صاحَ فيها محاولًا إفاقتَها:

_"كُفّي عن البكاء يا امرأة، أقسمُ باللهِ إن لم تلتفتي لبيتك وأولادك لألقينَّ عليكِ اليمين وألقي بكِ في الطرقات".

نهضت من مرقدِها واتجهت إلى المطبخ؛ طهت الطعامَ دون أن تلفظَ بكلمةٍ، كل ما فعلته أنها بعدما انتهت توجهت إلى زوجها، ومثلت أمامه ملامحُها صامتةٌ شاحبةٌ كالموتى، وبأعينٍ منطفئةٍ طلبت منه بصوتٍ صارمٍ أغربَ طلبٍ ممكن أن يأتي بباله، جعلته كاد يختنقُ بالطعام من المفاجأة، كانت تخبره بطلبها وليست في انتظار الموافقة بل هي تعلمه فقط بنبرةٍ آمرةٍ.

مرَّ الليلُ مرورَ الكرامِ، ولكن هل للكرامِ مخالبٌ تنبش بها في أعماق الخيّرين؟ لماذا لا يمضي كالكرامِ في هدوءٍ؟ لماذا يقلّبُ صفحات الماضي في نفوسنا بأوجاعه وربما بافتقاده المتتالي؟ استيقظ من غفوته ظمأً، كأسيرٍ غرقت قدماه في الصحراء ليالٍ عسيرةً، مد عنقه باحثًا عن الماء، وفاردًا كفه على امتداده ليعثر عليه، يستقي ويستقي وكأن ظمأه لا يرويه ماء، ظمأه يرويه أشياءٌ أخرى كذاكرته التي لهثَ بحثًا عنها ، كأقرانه الذين لا يعلمُ عنهم شيئًا. شهقَ بعمقٍ وأخرج زفيرَ الوحدة، واتجه نحو الشرفة يستنشقُ الهواء، علا

بناظريه نحو السماء داعيًا للمولى أن يُعثرَه على ما فقد، ويربتَ على كتفِه كطفلٍ تاهت قدماه في زحام الحياةِ بلا أبٍ ولا أمٍ.

قرر في نفسه أن يخرج إلى الطرقات، وربما إلى حديقةِ المستشفى؛ حتى يؤنسَ وحدته بالهواء الطلق ورائحة الزهور. خرج ثم مرَّ بين الطرقات إلى أن وصل إلى بوابةٍ مؤديةٍ إلى الحديقةِ، جلسَ هناك فردُ الأمن الذي منعه من التنزهِ ليلًا في تلك الساعة وبمفرده، ألحَّ عليه الأخيرُ في طلبه فما كان من فردِ الأمن إلا أن أتصل بغرفة الطبيبِ المعالج وهي سيلين، تثاءبت ونهضت على مضضٍ برنين الهاتف المزعج وأجابت : _"احجزْه عندك إلى أن أجيء إليك. ثواني أبدلُ ثيابي، شكرًا لك".

أغلقت الهاتف وهي تتمتمُ ألم يكفِ تعبُ النهار؟ لم ينقصني أنا سوى ذلك المريضُ المتعبُ ليلًا.

انطلقت متجهةً إلى البوابةِ تتثاءب محاولة استجماع عقلها، حيَّت الأمن، وابتسمت في وجهِ الأخير:

_" ألم تنمْ؟".

حينما رآها انتابه شعورٌ بالأمان قد غابَ عنه:

_"بالعكسِ لقد اكتفيت نومًا، ولكن شعرت أني أحتاجُ لبعضِ الهواءِ العليل البارد. أتعلمين أنا أحبُ الشتاء جدًا أفضله برغم صقيعِه

وبرغمِ أنه يصيبني بالزكامِ، ولكنَّه يحييني، ينعشُ صدري وكأنه انتعاشُ الحياة بعد الموت".

خطت ترافقُه مرتديةً سروالًا أبيضًا، كفيها مختبئة في الجيوب ابتسمت مشاركةً إياه الحديث. ظلا يتحاوران عن بعض الأشياءِ التي يعرفُها عن نفسِه هو، أو يشعرُ بها تفرحه، وهي جاهدت أن تذكره بأي تفصيلةٍ تخصُّ حياته، ولكنها فشلت قصت عليه بعضَ النوادر فأخذا يضحكان ويقهقهان، ومضى الوقت سريعًا إلى أنا داعبَ أجفانهما النهارُ، أخبرته أنها ستحضرُ له بعض المجلات والجرائدِ لحين أنْ تتحسنَ حالته ، وستجاهدُ في الوصول لأي معلومة عنه. جاء في ذهنها لابد أنَّ المرورَ قد أقرّ محضرًا بالواقعةِ وعليها تحري الأمرَ، أوصلته إلى غرفتِه مودعةً إياه، ابتسامتُها طمأنته أنَّ القادمَ أفضلُ، ولولا ما يحدث الأن ما تخطى الماضي. قبل أن تتركه وترحل أخبرته : _"نسيتُ أن أخبرك! أحدهم أوصلك إلى هنا يومَ الحادثِ وتركَ رقمَ جواله، ولكن الغريبَ أنَّ جميع اتصالنا به باءَ بالفشلِ، الرقمُ غير متاحٍ من وقتها ومرَّ أسبوعين ولم نيأس، ولكن اطمئنْ قريبًا ستجد غايتك".

وانصرفت إلى حال سبيلها، اتجهت إلى غرفتها وحدقت في عقاربِ الساعة فقد تخطَّت السادسةَ صباحًا، تمتمت سرًا (أعلم أن اختياري لهذه المهنة غيرُ مُرضٍ لصحتي ولا أملكُ الوقتَ لأشعر بأنوثتي)

لقد ابتدأ يومُها وجاهدت أن تفيق من نُعاسِها فتوجهت إلى بوفيه المستشفى وطلبت فنجانًا من القهوةِ، ثم ذهبت إلى موظفة الاستقبال طالبةً منها رقمَ من أحضرَ هذا المريض ليلة الحادثِ، فخطته لها في ورقة طبقتها ودستها في ثيابها وانصرفت إلى عملها. لم يغب عن ذهنِها أن تتصل بالرقم ظلت تعيد الاتصال إلى أن وجدت رنينًا، كاد قلبُها أن يتوقفَ من سرعةِ نبضاته وأخيرًا أجاب الطرفُ الآخر:

_"الو من أنا؟ من أنتِ؟".

تلعثمت في بادئ الأمرِ، لكن أخيرًا ردت:

_"أودُ مقابلتَك لو لم تمانعْ ضروري جدًا، سأنتظرُك في كافية (جراند مول) هل تعرفه؟ الساعةُ السادسةُ يناسبك؟

صمت قليلًا:

_" أعرفه، لكن لن آتي إلا عندما تخبريني من أنتِ؟".

_"اطمئن أنا طبيبة وأحتاجُ منك خدمة بسيطة لا تخف".

_" لم أفعل ما يخيفني سأكونُ هناك في تمام السادسة".

أغلقت الهاتفَ وهي مضطربةٌ همت أن تنهي نبطشيَّتَها من المرضى ولم تخبره بشيءٍ ولا أنها ستنبشُ في حقيقته حتى تصلَ به إلى برِ الأمان وربما برِ المجهولِ أو برّ الهاوية.

مرت الساعاتُ سريعًا وشغفُها يتضاعفُ عادت سيلين إلى منزلِها بدّلت ثيابَها التي تشبهُ غرفَ التعقيم وارتدت ثيابًا مزينة ومريحة، وتعطرت فشعرت ببعضٍ من أنوثتِها بعيدًا عن مهامها الطبية، ولكن كلما جاء في ذهنها أن ما تفعله قد يصلَ بها إلى طريق يفتحُ عليها أبوابًا من لهبٍ ترتعدُ فربما هذا المريضُ قاتلٌ أو لصٌ أو محتالٌ كلُ ما يجولُ في ذهنها هو حثّها الوظيفي أن تصلح من حالتَِه الصحيةِ والنفسية .

دسّت في حقيبتِها بعضَ المالِ وخرجت من منزلِها متوجهةً إلى الموعد المنتظَرِ في المقهى ودخلت بخطى مترددةٍ، ثم جلست على أولِ طاولة مرّت بجوارها وطلبت قهوتَها وظلت تعد الأسئلةَ وترتبُها. خائفةً ألا يأتي ذلك فاعل الخير وقد يكون هو من فعلَ به الحادثَ وأوصله للمستشفى لإراحة ضميرِه، لكن صرخت في نفسِها (كفى! احتفظي بهدوئك كفّى أفكار، اصمتي قليلًا يا نفسي).

ابتسمت وأخذت نفسًا عميقًا بمذاقِ القهوة تزامنَ مع وصول الشخص المنتظر لا يعرفها أخرجَ هاتفَه اتصل على رقمِها وراقب الرنينَ رفعتْ يدها تجيبُه فأشارَ لها، اقتربَ و ألقى عليها التحية

وسحبَ كرسيه وجلس مقابلًا لها، ابتسمت هي ابتسامةً خجِلةً وبادرت بالحديثِ :

_" أعرِّفُك بنفسي. أنا أعملُ طبيبةً في مستشفى ** التي جاءها منذ ثلاثةِ أسابيعٍ رجلٌ في حادث ومن أوصله ترك رقمَ هاتفِه، ولكن لم يكن هذا الرقمُ متاحًا، وأخيرًا تم فتح الهاتفِ ".

لم يمهلها أن تكمل لقد علم أنها تقصدُه، ارتبك قليلًا:

_"لقد سُرقَ هاتفي في نفس اليوم الذي أوصلت هذا الشابَ كانت حالته حرجةً، انحرف بسيارته يمينًا وارتطم بشجرة فكان واجبٌ عليَّ أنا أو من شاهدَ الحادثَ محاولةَ اسعافِه".

_"أحييكَ لموقفك البطولي، ولكن أين سيارته؟ وهل استعدت هاتفَك المسروقَ؟ هل تعلم أين حاجياتُه؟ لقد وصل المستشفى دون بطاقةٍ أو أوراقٍ تثبتُ شخصيتَه، وللأسف يُعالجُ من ارتجاجٍ بالمخ أصابه بفقدان ذاكرةٍ وأرجو أن تعاونني بأنْ أصل به لحقيقتِه أو لأهلِه".

_" أقدم لكِ نفسي في بادئ الأمرِ أنا المهندس شريف/ أملك معرضًا للسياراتِ ولا أحتاج لسيارته لكني وضعتُها في الحفظ والصون في إحدى جراجاتي".

حدقته باندهاشٍ:

_" كيف لك أن تحتفظ بشيء ما لا يخصُّك؟".

_"أنا لم أطمعْ فيها وهذا ما قدَّركِ اللهُ عليه؟ بدلًا من أن تشكريني؟

ارتشفَت قهوتها محاولةَ الاحتفاظَ بهدوئها:

_"لم أقل ذلك، ولكن لم استطع التوصلَ لأي معلومةٍ تخصّ المريضَ، ولا معلومةً تخصكَ لقد فقد ذاكرتَه وأملي الوحيدُ يتعلقُ بك".

_"آه! ومالي أنا بالأمر؟ ليس لديكِ ما يثبت أنني حصلتُ على سيارته وها هو فاقدٌ هويتَه من أينَ له أن يعرفَ من أنا؟ أو على الأقلِ ما رقمَ سيارته أنا فاعلُ خيرٍ ليس إلا".

قالها وأخفض صوته ودارت عيناه تتلفت في المكان، ابتسم وقد أشار للنادلِ؛ جاءه على الفورٍ فطلبَ الأخير قهوةً بالمثلِ وهو يبتسمُ لتلك الماثلةِ أمامه. تستشيط غيظًا ملعونٌ الحظ الذي أوقعَها في مريضٍ فاقد هويته وندلٍ فاقدٍ للشهامةِ، بعد صمت بينهما قطعته :

_"وما هي طلباتُك يا فاعلَ الخير؟".

_"لا شيءَ. مكافأةٌ بسيطةٌ حق إيجار الجراج ألستُ محقًا؟".

_" امم يكفي خمسةُ آلافٍ؟".

تململَ ولكنه وافقَ في النهاية واصطحبَها معه بعدما انتهى من احتساء قهوته إلى سيارته وتوجها إلى الجراج ترجلا من سيارته، ثم أخذها مباشرةً إلى الجراج في حين نفحته هي شيكًا بالمبلغِ المتفقِ عليه، كانت تتمتمُ سرًا وتلعنُه وتلعنُ وظيفتها، ولكن أخيرًا قالت :

_"صبرًا يا الله".

سمعها ولم يعلقْ فقط أشار لها نحو سيارة المجهولِ والذي نعلم جيدًا أنّه نفسه عبد الفضيل. أخذت السيارةَ كانت حالتُها جيدةً، قلَّبت في الشماسة فوجدت بعضَ الأوراقِ المطويةِ و من بينهم رخصةُ القيادة، وأوراقُ السيارة لمحت عيناها صورتَه تسمَّرت نحوها، رمشت قليلًا حين قرأت الاسمَ وتهجأته (عبد الفضيل عبد الحي) ثم أخذت نفسًا عميقًا وصافحت الرجل واتخذت السيارة وانطلقت لا تعرف إلى أين، ولكن فرحةَ انتصارها على عتمةِ المجهول أراحت صدرَها وجعلتْها تبتسمُ في ارتياحٍ وأصرَّت أن تتجهَ بها أخيرًا إلى المستشفى.

بعدما اتخذت طريق المستشفى عادت مرةً أخرى إلى منزلِها وخاطبت نفسها سرًا: ليس من الأفضلِ أن تخبرَه الآن بحقيقة هويته. الأفضلُ أن تنتظرَ لحين اكتمالِ دائرةِ الحقائقِ لم تنسَ ما قرأته في الصحف بخصوصه ولم تنسَ ما قد تشابه مع صورتِه وسبب له صدمةً تغلبَ عليها بالمهدئات حالته الصحيةُ لا تسمحُ له بالصدماتِ التي ربما كان الحادثُ هروبًا من إحداها؛ لذا قررت أن تتحققَ من الأمرِ بنفسها

وقررت أن تعود إلى منزلها. لقد كان يومًا مرهقًا لابد من أخذ قسطٍ من الراحة ربما تمكنت من إتخاذ الإجراء السليم تجاه الأمر برمته، صعدت إلى شقتها وأخذت حمامًا ساخنًا واحتست مشروبًا يدبُّ الدفء في أوصالها وأسلمت رأسَها للنوم، ولكن هناك حلمٌ لم تعلم هل هو علمٌ أم حلمٌ من بريق ما رأت شابًا مقيدًا بأحبالٍ ويبكي وهي التي أقدمت لتخلّصَه، ولكن كفّها أصابَه النزفُ وقلبها خفق لعين هذا الشابِ رغمَ ما تعانيه من نزفٍ وسقطت دمعةٌ مضطرةٌ للسقوطِ صاحبَها رنينٌ أزعجَها لتصحوَ تحسست الهاتفَ وصوتُها محشرجٌ:

_" الو من؟ لم أستطع المجيء اليوم، هل تعاني من شيءٍ؟".

تصمتُ ويجيبُ على الطرف الآخر بصوتٍ متقطعٍ:

_" أنا بخير يا سيلين، ولكني انتظرتُك لماذا لم تأتي؟".

ابتلعت ريقَها واعتدلت في جلستها وقالت بصوتٍ صارمٍ:

_"دكتورة سيلين! لم أتمكن من الحضور وغدًا سآتيك بأخبارٍ سعيدةٍ أو آملُ ذلك".

نطقُها الحادُّ واختيار الألقاب بينهما أشعرَه بالحرجِ أن يهاتفَها منتصفَ الليل لمجرد أنّه مريضُها، أنهى مكالمتَه معتذرًا وتعللَ:

_"أودُ الخروجَ غدًا من المستشفى و إن لم يكتمل علاجي فقد اكتفيتُ. سأبحث عن حياتي دون أن أزعجَ أحدًا. مع السلامة".

لم يمهلها فرصةً لتردَ على كلماتِه المفعمةُ بالحزنِ أخرجت زفيرًا مرًا وأغلقت عينيها رغبة في استكمال نومها، أما عنه فلم ينمْ وظلت الأفكار تلتهمُ رأسَه وأخيرًا ابتلعَ قرصين من المنومِ وأرغمَ نفسَه على النومِ.

الفصلُ التاسعُ عشرَ

ما أصابَ الطمعُ قلبًا إلا وأهلكَهُ كجرادةٍ جاءت على الأخضرِ فابتلعتْ ما به من خيرٍ وجعلتْهُ قحطًا ذليلًا فإنَّ ألعنَ ما يهاجمُ الدينَ هي البدعُ وألعنُ ما يفسدُ الرجالَ هو الطمعُ، يغلقُ العينينَ ويبتلعُ الضميرَ ويصمُ القلبَ قبلَ الأذنين.

على مقهىً في إحدى الضواحي جلسَ رجلانِ يتهامسانِ على فعلِ شيءٍ ما، أحدُهما رشوانُ زوجُ إيناسِ شقيقةِ عبدِ الفضيلِ والآخرُ غيرُ معلومٍ فقد تخفَّى ملثِّمًا وجهَه فلم تتضحْ ملامحُه يهمسُ بحذرٍ بعينٍ تلفتتُ يمينًا ويسارًا :

_"لن أعلمَ ملامحَهُ من مجردِ وصفٍ يا رشوان رُبَّما أصبتُ رجلًا أخرًا لابدَّ أنْ تعطيني صورةً حديثةً له".

_"سأُعطيكَ الصورةَ، ولكن لنْ أدفعَ لكَ مليمًا أحمرًا قبلَ أنْ تنفّذَ، أعلمُ أنَّ هذا الملعونُ بسبعةِ أرواحٍ مثلَ القططِ".

الرجلُ الملَثمُ :

_" ألمْ تخبرْني أنَّهُ فقدَ الذاكرةَ؟ لماذا تودُّ أنْ أقتلَهُ؟".

_" أصمتْ لعنةُ اللهِ عليكَ أتصيحُ؟ صِحْ يا مخبولُ ليعلمَ مَن حولَنا بما ننوي وتأتي الشرطةُ ونذهبَ إلى الجحيمِ، اخفضْ صوتَك عليكَ لعنةُ اللهِ".

_" أوه لم آخذْ بالي، ولكنْ بفرضِ أنَّهُ لم يمتْ؟ أو رآني أحدٌ أو أخذَ رقمَ السيارةِ؟".

_" وهل أنا مَن سيخبرُك كيف تفعلُها؟ ما كنتُ لجأتُ إليكَ يا ملعونُ وإنْ أمسكوا بك فأنا ليسَ لي علاقةٌ بالأمرِ أتفهمُ؟".

وانصرفَ كلاهما كلٌّ إلى حالِ سبيلِه في حينِ أنَّ هناكَ سيارةٌ صغيرةٌ وقفتْ أمامَ بنايةٍ نهضَ حارسُه بمجردِ ما توجَّهتْ له الشابَّةُ التي ترجلتْ منها ممسكةً برخصةِ قيادتِهِ وتستفسرُ عنه فما كانَ من الحارسِ إلا أنْ أخبرَها أنَّهُ طبيبٌ وكانَ يعملُ في عيادةٍ أخرى تركَ عنوانَها معلقًا جوارَ شرفةِ شقتهِ أخبرَها عنوانَ العيادةِ بمجردِ سماعِها ذلكَ تهللَ وجهُها :

_" أيعملُ طبيبًا؟ مثلي؟ يا محاسنَ الصدفِ".

انطلقتْ بالسيارةِ إلى العنوانِ وترجَّلَتْ من سيارتِها وصعدَتْ الدرجَ في لهفةٍ لا تُوصفُ تودُّ أنْ تُسابقَ الزمنَ لتعلمَ كلَّ شيءٍ عنه صعدَتْ للعيادةِ ودخلتْ من بابِها فقابلَها المساعدُ وأخبرتْهُ بهويَّتِها وعن مُهمتِها التي أتتْ من أجلِها فقالَ لها أنَّه رُبَّما رأى هذا الشابَ يتردُ على

العيادةِ، ولكنَّه لا يعملُ بها بل إنَّهُ ضمنَ إحدى مرضى الدكتور السلاموني حدَّقتهُ وهي عاقدةٌ حاجبَيها في اندهاشٍ غيرَ مصدقةٍ فطلبتْ أنْ تهاتفَ الدكتورَ السلاموني بنفسِه، طلبَ المساعدُ الدكتورَ السلاموني من إحدى التطبيقاتِ الإلكترونيةِ، فرحبَ بها الدكتورُ السلاموني الذي أكدَّ على كلامِ مساعدِه:

_" أينعم يا افندم دكتور عبدُ الفضيلِ هو بالفعلِ درسَ الطبَ النفسيَّ، ولكنَّهُ كان يأتيني في جلساتٍ خاصةٍ لأنَّهُ يعاني من هلاوسٍ سمعيةٍ وبصريةٍ، ولأنَّهُ مريضٌ بانفصامٍ ذهانيٍّ أي يهيأُ له أنَّهُ يحدِّثُ أشخاصًا غيرَ موجودين سوى في عقلِه وحدَهُ".

ما هو الانفصامُ الذهانيّ؟

_"هو اضطرابٌ عقليٌّ مزمنٌ وشديدٌ يؤثرُ على طريقةِ تفكيرِ الشخصِ وشعورِه وسلوكِه، كما قد يَسمعُ المصابون به أصواتًا غيرَ موجودةٍ، أو قد يعتقدون أنَّ أشخاصًا آخرينَ يحاولون إيذاءهم، غالبًا ما يصفُهُ الأطباءُ بأنَّهُ نوعٌ من الذُهانِ، وهذا يعني أنَّ الشخصَ قد لا يكونُ دائمًا قادرًا على تمييزِ أفكارِه الخاصةِ عن الأفكارِ التي تحدثُ في الحقيقةِ. ولكي تتأكدي من كلامي اطلبي من مساعدي الشرائطَ المسجَّلةَ باسم عبدِ الفضيلِ".

لم تتوقعْ ما سمعتْهُ فقد أصابَها الخرسُ ولم تتمالكْ أعصابَها عقبَ ما علمتْه، ولكن عادت لسؤالِها الأهمِ.

سؤالٌ آخرٌ يا سيدي :

_" هلْ قد تمَّ شفاؤه؟ أشعرُ أنَّه أصبحَ على ما يرامُ".

_"عبدُ الفضيلِ كان نابغةً، ولكن لهولِ ما حدثَ له على مدارِ حياتِه لم يتمالكْ أعصابَهُ كان يُهيأ له أنَّه يحبُ والدتُه وأنَّها تغازلُهُ وتبادلُهُ والعياذُ باللهِ وذلك لصدمتِهِ عندما سافروا لقضاءِ عطلةِ الصيفِ، ولكن أصابَها اسفكسيا الغرقِ وكانتْ أمامَ عينَيهِ وهي كلُّ الحنانِ المتمثلُ له في الدنيا كانتْ تلك إحدى الصدماتِ. أعتذرُ منكِ لن أتمكنَ من استكمالِ الحديثِ الآن فلديَّ اجتماعٌ عاجلٌ مع مأمورِ السجنِ الهولندي، ولكن أعطني مساعدي سوفَ آمرُه أنْ يفتحَ لكِ غرفةَ الكشفِ ويستخرجَ لكِ كلَّ التسجيلاتِ التي تمت بصوتِ عبدِ الفضيلِ، ولكن بعدما يتأكدُ من هويتِك أنكِ طبيبةٌ ولن تستغلي هذه الشرائطَ ضدَ مريضي أنتِ على علمٍ أنَّه لا يليقُ وهذا شرفُ المهنةِ".

بوهنٍ مثقلةَ القلبِ:

_"نعمْ أُدركُ ذلك ولكَ جزيلُ الشكرِ".

وأنهت المكالمةَ

وطئتْ قدمَيها غرفةَ الكشفِ تتلفتُ يمينَها ويسارَها يسبقُها للداخلِ المساعدُ الذي فعلَ كما أمرَه السلاموني أنْ يتحققَ من هويتِها

وبطاقةِ إثباتِ هويَّةِ النقابةِ أنَّها طبيبةٌ، اتجهَ نحو خزانةِ الشرائطَ ظلَّ يبحثُ بينها إلى أنْ توصلَ للشرائطَ المقصودةِ وكذلك أخرجَ لها المسجلَ حتى تستمعَ إليهم، أشغلتْ أحدَهم بشكلٍ عشوائيّ:

_"كنتُ في الصفِ الثالثِ الابتدائيّ حينما حدثَ لي أولُ تحرشٍ من معلمتي التي لم أستطع أنْ أخبرَ أحدًا بما فعلتْهُ معي (صوتُ بكاءٍ)".

إنُّهُ صوتُ عبدِ الفضيلِ! نبرتُه المملوءةُ شجنًا وكأنّ ما يقولُه ليس بجلسةِ علاجٍ وكأنَّهُ يعترفُ بشيءٍ ما اقترفَه ويودُّ التخلُصَ منهُ استمعتْ للشريطِ بأكملِه. وهناكَ لاحظَتْ مدونةً بعنوانِ حالةُ عبدِ الفضيلِ قد خطَّها السلاموني لوصفِ حالةِ مريضِهِ "انفصامٌ ذُهانيٌّ" جارتُهُ التي تشاغلُه في صعودِه ونزولِه الدرجَ توهَّمَ أنَّهُ أقامَ علاقَةً غيرَ شرعيةٍ معها وأنَّها فتاةَ ليلٍ قد اصطحبَها إلى بيته، رأى عدةَ شخصياتٍ يزعمُ أنَّهمُ يريدون اللحاقَ به وليسَ لديهم وجودٌ إلا في عقله.

مرت بضعُ ساعاتٍ بعدها طرَقَ المساعدُ بابَ المكتبِ واستأذنَها إنَّه موعدُ غلقِ العيادةِ، ولكن جاءها سؤالٌ طرقَ في ذهنِها:

_" لماذا تفتتحُ العيادةَ على العلمِ أنْ الدكتور السلاموني في سفريَّةٍ بالخارجِ؟ من يجلسُ مع المرضى؟".

تلجلجَ المساعدُ ولم يُجبْها، ولكن عند خروجِها لمحَتْ ميداليَةً عليها حرفُ A حدَّقتْها باندهاشٍ واتجهتْ نحوَها سألتْ عنها المساعدَ فقالَ أنَّهُ لا يعرفُ رُبَّما تخصُ أحدَ المرضى وقد نسيَها، لم تُرحْها تلك المغامرةُ بل أشعلت رأسَها بأفكارٍ جنونيةٍ مؤلمةٍ لم تعرفْ أين الحقيقةُ؟ كلُّ ما تعلمُهَ أنَّها تودُّ أنْ تذهبَ للاطمئنانِ على مريضِها، ولكن بمجردِ وصولِها إلى المستشفى صدمَها ما أخبروها به مع الأسفِ أنَّ مريضُها فاقدُ الذاكرةِ ورحلَ! ترك المستشفى، ولكن تركَ لها جوابًا قالَ فيه:

_"طبيبتي، أعلمُ أنَّني لا أعرفُ من أكونُ ولا إلى أينَ أذهبُ، ولكن ما علمتُهُ حقًا في تلك الأيامِ هو أنكِ منحتي حياتي مذاقًا غابَ عني مرارًا لم أهنأ بالأمانِ والابتسامِ إلا معكِ. آسفٌ لم أستطعْ الانتظارَ ولم أستطعْ أن أبوحَ لكِ فرحلتُ، شكرًا لكِ على كلِّ شيءٍ فعلتيه من أجلي".

إمضاء / مجهولٌ (سامحيني لا أعرفُ ما اسمي كي أخطَهُ.. مريضُكِ المحبُّ)

الفصلُ العشرونُ/ والأخيرُ

ما أصعبَ أنْ تسلبَك الأيامُ كلَّ ما تملكَه اسمكَ، هويتك، ملامحك، وطنك، الطريقُ قد تعرقلُك الظروفُ، والحياةُ، والمواقفُ المرةٌ وصانعوها، ولكن أنْ تمرَّ بفراغِ الذاكرةِ لعنةٌ مؤلمةٌ. خَطَتْ قدميهِ شارعَ المستشفى طالقًا لنفسهِ العنانَ لم يعرفْ إلى أينَ يسيرُ بمجردِ خروجِه وصلَ الشخصُ الملَثّمُ المستشفى ومعهُ صورةُ عبدِ الفضيلِ وأخبرَ أنّهُ قريبٌ له ويريدُ الوصولَ إليهِ فأخبروهُ أنَّهُ لن يتعدى الشارعَ فحتمًا لا زالَ على بعدٍ ليسَ ببعيدٍ فسابقَ الريحَ وانطلقَ بسيارتِه حدَّقَهُ، وحدَّقَ بالصورةِ فوجدَ غايتَه فما كان إلا أنْ ضغطَ بكلِّ قوةِ عجلةِ القيادةِ فانطلقَ كالقذيفةِ لتسقطهَ كخرقةٍ بلا حراكٍ في دمائه تعالت الصيحاتُ بالشارعِ وحاولوا اللحاقَ بالسيارةِ التي بلا أرقامٍ فاختفتْ عن الأعينِ فجاهدَ بعضُ المتواجدينَ من الحضورِ في نقلهِ سريعًا إلى المستشفى، وهناكَ كانت سيلين لازالتْ ممسكةٌ بخطابهِ تعانقُ عيناها كلماتَه التائهةَ التي تشبهُه كثيرًا. صاحتْ بها زميلتُها فقطعتْ أفكارَها:

_"أسرِعي هناك حالةُ طوارئ".

تركتْ لتوّها الخطابَ وتوجّهتْ إلى غرفةِ الطوارئ لتقومَ بالإسعافاتِ وما أنْ رأتهُ صرختْ وبكتْ بصوتٍ محشرجٍ:

_" لالالالالا هو هو لمَ تركتموه يرحلْ؟ أرجوكَ لا تتركنْي. أرجوك".

ارتعشتْ يداها وأدخلتْه للعملياتِ، ولكنْ طلبتْ من زميلتِها أنْ تحلَّ محلَّها لئلْ تُسعفَها أعصابُها المتوترةُ، ظلَّتْ تدعو الله أن ينقذَه امتزجَ دعاؤها بالدمعاتِ، كانتْ تذرعُ المكانَ ذهابًا وإيابًا ممسكةً بالمصحفِ تقرأُ قرآنًا إلى أن خرجتْ زميلتُها من غرفةِ العملياتِ. توقّفَ قلبُها وعيناها على شفاهِ زميلتِها منتظرةً ما ستخبرُها به وكأنَ الحياةَ توقَّفتْ على قيدِ كلمةٍ تطمئنُها ابتسمت الأخيرةُ وربتتْ على كتفِها فزفرتْ وقالتْ كلمةً واحدةً:

_"اطمئني".

ظلَّ تحتَ الرعايةِ يتناوبون على رعايته طيلةَ الليلِ، وفي الصباحِ أفاقَ من البنجِ ليسألَهم: _"أينَ أنا؟ كنت أقودُ سيارتي بعدما خرجتُ من العيادةِ، أينَ السيارةُ؟".

دخلتْ سيلين في لهفةٍ وابتسمتْ ودمعةٌ سالت من عينيها حينما رأتهُ بخيرٍ وأشارتْ له بالخطابِ :

_"آسفةٌ لم أقصدْ أنْ أحرجَك".

قاطعها متوترًا :

_" مَن أنتِ؟ هل أنتِ زميلةٌ؟ أنا دكتور عبدُ الفضيلِ، ولكن من أنتِ؟ من جاء بي إلى هنا، اااه".

_"لا تتحركْ حمدًا لله على سلامتك لقد عادت لك الذاكرةُ شكرًا لله، استرحْ وغدًا سأقصُ عليك كلَّ شيءٍ".

_" ولكن يهيأُ لي أنّي رأيتُك من قبل أليسَ كذلك؟".

ابتسمتْ وخرجتْ من الغرفةِ وعزمتْ على أن تقصَ عليه كلَّ شيءٍ، ولكن قبل ذلك ستخبرُه أنَّها... أنَّها تحبُه وهذا ما يحتاجُه فقط وما تحتاجُه هي حبُه فقط فيكفي الحبُ أنْ يعانقَ أرواحنا لنمضي ونكملَ السيرَ".

في غضونِ يومين استعادَ ذاكرتَه كاملةً بالعلاجِ والغذاءِ، تذكَّرَ سيلين وما فعلتهُ ولكنها خلالَ اليومين غابت عنهُ كغيابِ شمسٍ في فصلِ الشتاءِ تجرَّعَ غيابَها المرُّ، برودةُ الحياةِ رغمَ أنَّه استعاد كلَّ ما فقدهُ من ذاكرةٍ والفضلُ يرجعُ للمتهورِ الذي صدمهُ فعسى أنْ تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم.

توصَّلتْ سيلين خلالَ اليومين إلى بعضِ المعلوماتِ عن شقيقتيهِ وأصرَّت على زياتهما على التوالي حتى تتأكدَ مما أخبرها به السلاموني. جاءَ الصباحُ ليخفقَ قلبُها بكلِّ حيويةٍ وخرجتْ تعانقُ ابتسامتِها الشوارعَ متلهفةً لتلملمَ كلَّ ما سقطَ منها وغابَ عنها لتُعرِّفَهُ بالأكثرِ، طافتْ بسيارتِها إلى أنْ وصلتْ للبناية التي قطنت بها أكبرُهن ودخلتْ إليها وصعدتْ؛ طرقت البابَ ففتحت الأخرى لوهلةٍ أصابتها الدهشةُ :

_"من انتِ؟".

تسمَّرتْ عيناها تراقبُ الماثلةَ أمامَها فابتسمتْ سيلين مادةً يدها مصافحةً :

_"دكتورة سيلين من طرفِ دكتور عبدِ الفضيلِ".

بدا على وجهِ إيناس الارتباكُ، ارتعشتْ الأحرفُ على شفتيها:

_"عَب.. عبدُ الفضيلِ؟ أخي؟".

_" نعم! هل لي أن اتفضل بالداخلِ".

اصطحبتها إلى الداخلِ وجلست تقصُ عليها منذُ دخولِه المستشفى في حادثٍ أولٍ ثم حادثٍ آخرٍ عن قصدٍ عن عناوين الجرائدِ التي تحملُه، تهم لا تعرف صدقها من زيفها وجاءت لتعلم ما الحقيقة، ثم لحظة صمت زاغت فيها عيني إيناس واستدرجت الأخيرة:

_"وماذا حدث في المصيف بصحبة والدتك".

تلعثمت في الرد واسترجعت المشاهد في مخيلتها لتسقط دمعتان:

_"كنا في قمة بهجتنا وفجأة انسابت الأرض أسفل قدميها كان عبد الفضيل بالقرب منها حاول أن يخرجها ولكن وزنها كان اثقل لم يكن هناك إلا لحظات وانتهى كل شيء".

_" وما كان أثر ذلك على أخيكِ؟".

لم تجيب الأخيرة انعقد لسانها ثم لحظة تبدلت ملامحها إلى البغض:

_"ماذا جاء بكِ إلى هنا؟ أن كان هو من أرسلك لنتراجع عن الدعوة القضائية فأخبريه أننا لن نتراجع، وفي القريب سنثبت عدم أهليته ونكسب الحجر عليه وقتها سوف...".

_"وقتها ستتمزق جميع الخيوط بينك وبين أخيكِ، ستتمزق الشرايين التي غزلها اباكم وتسيل الدماء وتصبح ماء بارد، هل المال أهم لكِ من صلة الرحم؟".

_"المال سأتعكزُ عليه حين أشيب ليس لدي أبناءٌ وربما يتزوجُ زوجي بأخرى".

_"ألا يفني المال؟ ألا من الممكن يتزوج زوجك بأموالك التي خسرتِ من أجلها شقيقك الوحيد بدلًا من أن يكون لكِ هو العكاز الذي ترتكزي عليه في شيخوختك؟ أتقفي أمامه في المحاكم؟!".

انفجرت إيناسُ بغضبٍ:

_"ماذا جاء بكِ إلى هنا؟ ومن أنتِ حتى تتدخلي بين الإخوةِ؟ هل من مهامِ الأطباءِ التدخلِ فيما لا يعنيهم؟".

ابتسمتْ لها سيلين محاولةً أن تلطفَ من حدةِ حديثها:

_إنْ ذهبَ المالُ وذهبُ الزوجُ وبقيتي وحدَك أمامَ الله ِبين كفيه، ماذا ستقولين؟ ماذا فعلتي في دنياكِ؟".

بغضبٍ تجذبُها من ساعدِها:

_"اذهبي ما شأنُك أنتِ بنا؟ هذا حقي ولن أتنازلَ عنه لن أتراجعَ".

قالتها في حدةٍ وإصرارٍ فنهضتْ سيلين تربتُ على كتفِها:

_" ما رأيُكِ أنْ تأتي معي لتريهِ؟ تُرى هل مازالتْ ملامحُه كما هي؟ هل هو أخيكِ الذي تحفظينهُ عن ظهرِ قلبٍ؟ أم أطاحت بهِ الأيامُ وركلَتهُ ضمنَ ركلاتِك؟".

ارتعشتْ وارتبكتْ، ولكن أولَتها الأخيرةُ ظهرها غيرَ مباليةٍ. تضايقتْ سيلين من طريقةِ شقيقتِه وبالأكثرِ حينما نهضتْ وفتحتْ البابَ مشيرةً إليها أنْ تغادرَ، ذهبتْ وهي تحملُ جبالًا فوقَ صدرِها مطبقةً لم تيأسْ. توجهتْ إلى سيارتِها وانطلقتْ في طريقِها إلى المحامي، ترجّلتْ وسارعتْ قدمَيها الدرجاتِ لتجدَ له مخرجًا من كلِّ هذا الجحيمِ، وصلتْ أخيرًا.

حين رآها تجهمتْ ملامحُه متسائلًا:

_" من تكونين؟".

أخبرتْه الأخيرةُ عن هويتِها، ولكنْ لم يُبدي أدنى تعاطُفَ حين قصَّتْ عليه ما حدثَ لمريضِها وحبيبِها وما عانى منه ولازالَ خصّيصًا إذا علمَ بكلّ هذا وذاك، ابتسمَ المحامي كانت الابتسامةُ على طرفِ شفاهِه إلى أنْ جاءهُ هاتفٌ أخرجهُ من دورِه المتقَنِ وعادَ إليها بابتسامتِه البلاستيكيةِ :

_"وما المطلوبُ مني؟ لابدَّ لأحدِ موكليني بالتنازلِ أمَّا أنا فليسَ لي هدفٌ ولا مصلحةٌ من الحكمِ أو دونهِ".

ارتعشتْ الأحرفُ على لسانِها بغيرِ ترتيبٍ :

_"أرجوكَ يا متر أنْ تساعدَني هو لم يأخذْ علمٌ بما حدثَ ولا القضية، تلك التفاصيلُ مرهقةٌ بل مميتةٌ له، أرجوكَ لن أستطعَ إخبارَه ساعدني وساعدْه بحقِ الإنسانيةِ".

قهقهَ عاليًا فحدقتْهُ بغضبٍ :

_"هل قلتُ نكتَةً؟".

_" عفوًا سيدتي، ولكن أيُّ إنسانيةٍ التي تُحلّفيني بها لأعدَكِ بالحلِ السحريّ، إنها الحياةُ منذُ الخليقةُ لمَ تندهشين؟ الحياةُ للقوّةِ، للنفوذِ، للمالِ لم نَتسلَمها باللينِ والعطفِ".

تذكرتْ لوهلةٍ كلماتِه الرقيقةَ في الخطابِ فسقطتْ منها دمعتان:

_"أرجوكَ لا تتخلَّ عنه أرجوكَ".

طأطأ رأسَهُ في أسفٍ :

_" أعتذرُ منكِ ليس بيدي حيلةٌ على أحدِ موكليني بالتنازلِ، سامحيني أنا عبدٌ مأمورٌ".

_"وماذا عن الأمرِ الإلهيّ؟ ألا تخافُ من عقابه؟".

قامتْ تجرُّ قدميها متلفحةً بالخيباتِ وانصرفتْ من مكتبِ المحامي والألمُ يعتصرُ قلبَها هل هذه هي الحياةُ التي جاهدتْ أنْ تعيدها له؟ بكل أطنانِ كآبتِها؟ هل هؤلاء هم الأهلُ المنتظرُ رؤياهم؟

توجهت بسيارتِها إلى آخرِ بابٍ لتطرقَه ربما فتحَ لها الله مخرجًا بعدما أغلقتْ كلُّ الأبوابِ. ضغطتْ الجرسَ فجاءها صوتٌ من الداخلِ سائلًا :

_" مَنْ بالبابِ؟ ".

كانتْ هي الشقيقةُ الصُغرى تلك التي خضَعتْ لأوامرِ شقيقتِها الكُبرى مُرغمةً بدونِ رغبةٍ

_" أنا دكتورة سيلين من طرفِ أخيكِ دكتور عبدُ الفضيلِ".

بمُجردِ ذكرِ اسمهِ أطبقتْ الأخيرةُ عليها تُقبِّلُها وتحتضنُها وبدا عليها السعادةُ والسرورُ : _"عبدُ الفضيلِ؟ أخي الحبيبُ وتوأمُ روحي؟ تفضَّلي يا رائحةَ الأحبةِ".

_"أحقًا تبتغي كلَّ هذا الحبِ؟ ولماذا وافقتي على قضيةِ الحجرِ أليس هو توأمُ روحِك كما تقولينَ؟".

اصطَحبَتْها وأغلقت الباب وتجهَّمت ملامحُها واختنقتْ الدمعاتُ في عينيها وأخيرًا انفجرتْ :

_" لم أكنْ أنا، اللهُ يجازي من كان السببَ، ملعونةٌ هي الفلوسُ التي تغيرُ النفوسَ، يا قلبي وما فيه يا أخي! ".

ظلَّتْ تنتحبُ فحاولتْ سيلين تهدئتَها وأخبرتها بما مرَّ به شقيقُها من معاناةٍ وما ينتظرُه من معاناةٍ مضاعَفةٍ فأزاحتْ الأخيرةُ دمعاتِها راجيةً إياها أنْ تأخذَها لهُ لعلَّها تنقذُ ما يمكنُ إنقاذُهُ متوعُّدةً لها أنْ تتنازَلَ وتُجبرَ شقيقتَها على التنازُلِ، وانصرفا كلاهما قاصدًا المستشفى تهلّلتْ شقيقتُهُ بمجردِ الوصولِ، ولكنْ كانَ هناك شيءٌ ما غيرُ طبيعيٍّ، بدا على المُمرضاتِ الوجوم إلى أنْ توجَّهتْ معها سيلين إلى غرفةِ عبدِ الفضيلِ خطَتْ أقدامهُما في بهجةٍ وسعادةٍ كادتْ تمزّقُ شرايينَ القلبِ، ولكنْ لمْ تجدْ عبدَ الفضيلِ في غرفتِه فذهبتْ إلى إحدى زميلاتِها تسألُها :

_"هلْ تحسَّنَ مَريضي المحبوبُ؟ أينَ هو؟".

تبدَّلَ وجهُ زميلتِها وصارَ شاحبًا بل أشاحتْ به بعيدًا مما أثارَ غضبَ سيلين :

_"أقولُ لكِ أينَ عبدُ الفضيلِ؟ لقد ذهبتُ إلى غرفتِه فلمْ أجدْه".

تلعثَمتْ زميلتُها وكادتْ تقطعُ لسانَها وهي تخبرُها :

_"عبدُ الفضيلِ جاءتهُ نوبةٌ هيستيريةٌ وحطَّمَ كلَّ شيءٍ في الغرفةِ حينما علمَ أنَّ شقيقتيهِ رفعتا عليهِ قضيةً، ظلَّ يحطِّمُ كلَّ شيءٍ وأخيرًا تمزَّقتْ إحدى شراينِ يمينهِ".

صرخَتْ سيلين بصوتٍ عالٍ :

_" لاااا ماذا تقولينَ؟ هل ماتَ؟ أرجوكِ لا تقولي أنَّه ماتَ، عبدُ الفضيلِ لن يتركَني".

فانطلقتْ صرخةٌ من شقيقتهِ تطرقُ بقوةٍ على صدرِها وطارت كلاهما إلى غرفتِه التي أشارتْ لها زميلتُها.

_" أنا جئتُ أراكَ يا أخي يا ابنَ أمي، لمَ فعلتَ في نفسِك كلَّ هذا؟".

ظلَّتْ تُقبِّلُ قدميهِ وتبكي وتنتحبُ، وأما عن سيلين فراحتْ تقبّلُ جبينَهُ ويمينَهُ المحاطةُ بضمادةٍ

_"لماذا فعلتَ في نفسِك كلَّ هذا؟ لمْ أتركْك كنتُ أبحثُ لك عن عائلتِك كنتُ...".

تنتحبُ بصوتٍ محشرجٍ :

_" إنَّني أحبُك يا عبده ولن أتركَك، أرجوكَ لا تتركني".

ظلَّتا كلاهما تبكيان إلى أنْ جاءهم طبيبُ الحالةِ :

_" أرجوكم لا فائدةَ مما تفعلونه لقد تطوَّرَتْ حالةُ الفصامِ لعبدِ الفضيلِ وأصابتهُ أزمةٌ نفسيّةٌ كادت تفتكُ به".

سيلين بصوتٍ مرتعشٍ :

_"هل جُنَّ؟ أم يمكنُنا أنْ نتزوجَ؟".

_"كلُّ ما أستطيعُ أنْ أخبرَك بهِ هو أنَّهُ سيظلُ بعضَ الوقتِ " تحتَ الملاحظةِ" إلى أنْ تتحسنَ حالتُه ولابدَّ أنْ يكونَ هناك دافعٌ قويٌ لهذا التحسّنِ".

خرجتا الشابتان على عزمِ أنْ يُجبرا شقيقتَه الأولى على سحبِ القضيةِ والتنازلِ حفاظًا على حياةِ أخيهم ربَّما تحسَّنتْ حالتُه يومًا ما.

تمت بحمد الله

الفهرس

الفصلُ الأولُ ٦

الفصلُ الثاني ٩

الفصلُ الثالثُ ١٤

الفصلُ الرابعُ ١٩

الفصلُ الخامسُ ٢٣

الفصلُ السادسُ ٢٩

الفصل السابع ٤١

الفصلُ الثامنُ ٤٧

الفصلُ التاسعُ ٥٣

الفصلُ العاشرُ ٦١

الفصلُ الحادي عشرَ ٦٦

الفصلُ الثاني عشرَ ٧٥

الفصلُ الثالثُ عشرُ ٨١

الفصلُ الرابعُ عشرَ ٨٨

الفصلُ الخامسُ عشرَ ٩٤

الفصلُ السادسُ عشرَ ١٠٠

الفصلُ السابعُ عشرَ ١٠٣

الفصلُ الثامنُ عشرَ ١٠٨

الفصلُ التاسعُ عشرَ ١٢٧

الفصلُ العشرونُ/ والأخيرُ ١٣٣